6

القصر

كان المقر الرئيس لسلطة قوات التحالف على بعد ميل تقريباً خلف بوابة الحشاشين، في آخر طريق مليء بأشجار الأوكاليبتوس، وأبنية حكومية دمرت نتيجة القصف، وحواجز إسمنتية، كان القصر الجمهوري محمياً ببوابة حديدية عالية ومواقع مدافع رشاشة محصنة بأكياس رملية، وهو مبنى مؤلف من طابقين على الطراز البابلي المفضّل لدى صدّام، وقد زُيّن مدخله بأعمال فنية على شكل نسور. وكانت تتصدر الواجهة أربعة تماثيل رمادية متطابقة بحجم عشرين قدماً لصدّام. وتحت هذا الإجلال الكبير الذي فقد معناه للقائد المخلوع، كان 1200 موظف من سلطة الائتلاف المؤقتة يعكفون على إدارة البلاد.

كان الدخول لرؤية أحد هؤلاء الموظفين، كما وصفه أحد مستشاري بريمر الأقدمين، «كالهروب من السجن في الاتجاه المعاكس». كان هذا في الأشهر الأولى للاحتلال، حين كان بوسع سائقي الحصول على إذن أمني للدخول إلى بوابة الحشاشين، بعد تفتيشنا نحن الاثنين بالإضافة إلى سيارتنا، حيث يقود بنا عبر الحواجز على الطريق إلى القصر، ويتبع الإشارات التي تحذره من القيادة بسرعة كبيرة، أو ببطء شديد، أو من التوقف لأي سبب وتحت أي ظرف، ثم يركن السيارة في بقعة كبيرة قذرة مليئة بسيارات الدفع الرباعي البيضاء اللامعة، التي لا تشبه سيارات بغداد. عبرت الطريق وتقدمت لتفتيش آخر، وتدقيق بالهوية من قبل جنود موجودين تحت سياج عشبي نبت بجانب البوابة الحديدية، ولكنني لم أدخل بعد: كان علي تحديد موقع الشخص الذي سأقابله في القصر. يمكن الاعتماد على هاتفي النقال (الثريا) فهو يعمل بشكل جيد في المساحات المفتوحة، ولكن الشبكة الخلوية التي أنشأتها شركة MCI لصالح الاحتلال في بغداد كانت ضعيفة التغطية، وكنت دائماً أتلقى صوتاً مسجلاً يخبرني بأن الرقم غير موضوع بالخدمة حالياً، ونظراً لصعوبة الحصول على موعد، فقد طلبت الرقم مراراً وتكراراً، وفي النهاية وفي أكثر الأحيان كنت أحصل عليه. بعد

مرور عشر أو خمس عشرة دقيقة -قضيتها في مراقبة أفواج من الناس ذوي مراكز متميزة، يمشون أو يقودون سياراتهم إلى القصر فقط بإبراز بطاقات هوياتهم- ظهر مرافقي من أحد المداخل تحت المنحوتات الفنية للنسور، ومر بجانب النافورة وحديقة الأوكاليبتوس وأشجار النخيل، لتحيتي وتقديمي إلى غموض الاحتلال.

كانت هذه مجرد البداية، بعد ذلك أصبح الموضوع معقداً جدًّا في أثناء السنة الثانية استمرت الأنظمة في التشدد، حتى لم يعد بمقدوري التحرك مسافة ميل واحد داخل القصر دون مرافق يحمل أعلى تصريح أمني.

يمكن المقارنة بين الدخول إلى القصر والخروج منه، فلا فرق بينهما: حيث على الموظفين الراغبين بمغادرة المنطقة الخضراء طلب مرافقة من عربتين عسكريتين، مما يستلزم التحضير قبل 48 ساعة، على افتراض أن الجنود وعربات (هامفي) متوافرة. بعض الموظفين لا يلتزمون هذه القواعد، لغرض إنجاز أعمالهم، ويخرجون بسيارات عادية دون مرافقة أمنية إلى (المنطقة الحمراء)، أو يمكن أن نقول العراق: بعضهم الآخر -وكان عددهم يتزايد بمرور الوقت- كانوا نادراً ما يغامرون بالخروج، وقد قابلت موظفاً بريطانياً من قوات التحالف، يعمل في مجال حقوق الإنسان، لم يغادر المنطقة الخضراء إلا ثلاث مرات في أثناء خمسة أسابيع، مع أن المنطقة الخضراء تعد جغرافياً في قلب بغداد، إلا أن موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة كانوا يعيشون في عزلة تامة.

لقد وصف هيوم هوران، وهو مستعرب وسفير متقاعد أعاده بريمر إلى الخدمة، «ليكون حيواني البدوي الأليف» في سلطة الائتلاف المؤقتة، ما تمثله مغادرة المنطقة الخضراء بعد حبس طويل فيها: «إنها مشكلة معرفية، ماذا يحدث في الخارج؟ أنت تتحسس الخبر فقط، وعندما تصبح في الخارج تعرف كل شيء على حقيقته، إن الأمر يبدو وكأنك تلبس إحدى تلك البذلات السوداء التي تمنع عنك الإحساس بما يحيط بك، ثم تسقط في الماء لترى ما يمكنك أن تشعر به».

كنا نجلس أنا وهوران، في قاعة من المرايا على أرائك خضراء موشّاة بخيوط ذهبية، تحت قبة رخامية ضمن المبنى الرئيس في القصر. (مرةً أخبرني قائد أحد الألوية أن أحد

أسـوأ الأشياء التي يتصف بها البعثيون هو ذوقهم في الديكورات الداخلية، وقد كان القصر الجمهوري، وهو واحد من عشـرات القصور الرئاسية التي نادراً ما كان صدام يستخدمها، مفروشـاً كالقصور الأخرى بطريقة مبتذلة بشـكل كبير مأخوذة من تصميمات فيرساي). وبينما كنا نتحدث، أنا وهوران، كان هاتفه الخلوي بجانبه يرن بلا انقطاع، لقد كان المتصل شخصـاً عراقياً على موعد مع هوران، وكان يواجه صـعوبة في معرفة الطريق الموصـل إلى القصر، وعبر سلسلة من المكالمات حاول هوران تحديد موقع الرجل، وتوجيهه باتجاه البوابة الرئيسة. وفي النهاية، جاء سكرتير هوران ليعلمه بأن الرجل موجود بجانب حائط أسود عالٍ في مـكان مـا لا يوجد فيه جنود، حينها أخبر هوران سـكرتيره «أظن أنه يجب تأجيل موعده اليـوم». كنت قد بدأت اعتياد هذا النوع من المعاملة، ولكن هذا المواطن العراقي القاطن في بغـداد، الذي ربما بذل جهوداً كبيرة للحصـول على هذا الموعد، ولكنـه يفتقر إلى المهارات اللغوية المناسـبة، أو إلى الثقة التي تمكنه من الاستفسار من الأمريكيين المدججين بالسلاح عـن الطريـق، ربما عـاد في يوم آخر ونجح في تحقيـق هدفه، أو ربما كان هـذا إخفاقاً آخر للتواصـل في الأيام الأولى للاحتلال، حين كان العديد من العراقيين يحاولون لقاء الأجانب، الذيـن باتوا الآن يحكمـون بلدهم، حيث لن تكون هنالك على الأرجح فرصـة أخرى لذلك. راقبت وجه هوران -كان رجلاً متقدماً في السن، ذا عينين زرقاوين وبه بقع داكنة في وجهه، وشـعر رمادي كثيف، يرتدي صـندلاً وجوارب زرقاء قصـيرة تظهر كاحلين شـاحبين تحت بنطـال خاكـي اللون- عندما صـرّح بأن على الزائـر العودة إلى منزله، أنهـى المكالمة وعلى وجهه تعابير تدل على خيبة الأمل، وأذكر أني فكرت في أن ذلك بدا وكأنه سوء طالع.

كان حجم الغرف يوحي بأن الهدف الرئيس من إنشـاء هذا القصـر هو لتمجيد القائد أكـثر منه لإدارة شـؤون الدولـة؛ مقابل الصـالة الدائرية كانت هناك غرفة سـقفها ثماني الأضـلاع، عليها صور خيول كأنها صاعدة إلى السـماء، على الجدران المقابلة كانت هنالك جداريات إحداها تصـور صاروخ سكود ينطلق في السماء، والأخرى صورة المسجد الأقصى في القدس دون يهود، لقد تم تحويل الغرفة إلى معبد. عند الزاوية كانت هنالك قاعة أوسع، على مسـاحة تماثل ملعب كرة السـلة التي أصبحت كافيتيريا يتناول فيها المئات من موظفي التحالـف وجباتهـم، مع أعمال فنيـة تمثل آشـوربانيبعل على موائد الطعـام. كانت مكاتب

الإدارة والاتصالات الإستراتيجية موضوعة في غرف الاجتماعات الكبرى ذات السقوف العالية، مع مكاتب الموظفين الظاهر نصفها من خلف الحواجز المنتشرة على مساحة هائلة من الأرض. ومع ازدياد حجم سلطة الائتلاف يتم تقسيم ممرات القصر بجدران مؤقتة لإقامة مزيد من المكاتب.

كان هنالك عدد من الموظفين البريطانيين في القصر، وبعض الموظفين من دول التحالف الأخرى، والأميركيين العراقيين الذين تم تنظيمهم من قبل البنتاغون قبل الحرب مباشرة، ومجموعة أمنية من الجنود النيباليين (غورخا)، ومدة من الزمن وحدة من الكاربيناري الإيطالية حول البوابة الرئيسة، يبدون أكثر أناقة بكثير من نظرائهم من البلدان الأخرى، بقمصان سوداء ونظارات شمسية وقفازات جلدية، بيد أنه ما من زائر للقصر قد خامره أي شك حول أي بلد كان مسؤولاً عن العراق؟، لقد كان التركيب بشكل ساحق من الأميركيين الذين كان نصفهم من المدنيين ونصفهم الآخر من العسكريين، مع رجال ونساء من وزارات الخارجية والخزانة والدفاع، والوكالات الأخرى، يرتدون ملابس مكاتب غير رسمية -بناطيل خاكي وقمصاناً زرقاء- مختلطين بجنود شبان في لباس صحراوي مموه، يحملون بنادق إم 16 فارغة معلقة في أكتافهم. وكانت هناك ملاجئ ضد القنابل تتضمن غرفاً. لقد شكل الامتزاج الجوهري بين البيروقراطية والحرب مشهداً غريباً. وقد وصف أحد مسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة القصر بأنه مليء بأناس كانوا بيروقراطيين بوجوه كالفطائر (جمع فطيرة)، ذوي أوزان زائدة في منتصف العمر من دافعي الأوراق بمستوى متوسط، لكنهم جميعاً يرتدون دروعاً واقية للبدن وخوذاً، يالها من مسرحية! إنك في عالم متغير عجيب. فإذا خرجوا في زيارة روتينية، يتعين عليهم ارتداء الدروع الواقية، ومواجهة احتمال أن يمحوا عن وجه البسيطة».

وسط هذا الجو من البشاعة الغريبة، كان القصر عبارة عن خلية نحل من الأنشطة الهادفة. إن مقياس المكان قد قزّم سكانه من البشر، بحيث يتعذر ألا يشبههم الواحد بحشرات. وكان الجو على حد قول هوران: «يعج جدًّا بالشغل». وكان الأميركيون يدأبون دون توقف عن الطباعة على الحواسيب أو يسرعون جيئة وذهاباً على بلاط الرخام، أو يأخذون استراحات سريعة تحت أعمدة الغرانيت، يعملون حتى وقت متأخر من الليل على

مدار سبعة أيام في الأسبوع، بنوع من الطاقة المتفائلة التي تتناقض بشدة مع البلد المستنفذ القوى خارج الحدود الأمنية، الذي ألقي بهم فيه من الجو. لقد بدا السواد الأعظم منهم من الجمهوريين، وأكثر من قلة كانوا من الموالين للحزب أتوا إلى العراق بوصفهم سياسيين معينين في جولة مدتها تسعون يوماً. لقد كانوا من حداثة السن بما يثير الدهشة. فالكثير منهم لم يسبق لهم أن عملوا خارج البلاد قط، وقلة منهم الذين كانوا يعرفون أي شيء عن الشرق الأوسط، وفي ذلك الصيف الأول كان هناك ثلاثة أو أربعة أميركيين يتكلمون اللغة العربية. وكان بعضهم ببساطة غير مؤهلين لتحمل مسؤولياتهم. فقد أشرف شاب في الخامسة والعشرين من عمره على إقامة سوق بورصة بغداد، وساعد شاب آخر في الخامسة والعشرين من عمره، من مكتب الخطط الخاصة، في كتابة الدستور المؤقت، بينما كان يقوم بملء استمارة كلية الحقوق المنتسب إليها.

غير أنهم كانوا يؤمنون بما كانوا يحاولون القيام به، ألا وهو إعادة بناء العراق الديمقراطي. وكانوا يحاولون القيام بذلك تحت النار في بلد قطعت أوصاله شر تقطيع، بسلطة حاكمة أخذ المزيد، ثم المزيد من العراقيين ينظرون إليها على أنها غير شرعية. فقد أعلن مسؤول رفيع المستوى في الإدارة قائلاً: «لقد بعثنا بشباب ليست لديهم الخبرة، وكانوا فريقاً ينبض حماساً، وتملؤه الشجاعة للقيام بما قد يجده المحترفون، ممن علمتهم الأيام، تحدياً غاية في الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً. وعوضاً عن ذلك بعثنا بفريق ثالث أو رابع أو خامس»، وأقر واحد من «القلة المحنّكين» في سلطة الائتلاف المؤقتة قائلاً: «لا أحد منا كان يعلم ما الذي نقوم به على مستوى معين؟، حيث لم يكن لدينا ما يكفي من المعلومات الجيدة»، فالسواد الأعظم منهم لم يكونوا يعرفون ما الذي لا يعرفونه، لقد كانوا دائماً منتشرين على امتداد هش، ولم يكن يوجد منهم ألبتة ما يكفي، ولا ما يكفي من المركبات والهواتف والحراس الشخصيين والوقت والمال. كانت الرحلات خارج المنطقة الخضراء تلغى باستمرار جراء نقص الحراس المرافقين. ففي صيف 2003 كان موظفو سلطة الائتلاف المؤقتة أقل من 50% ولم ترتفع بتاتاً عن 70% وكان حجم العمل سريعاً للغاية، وكانت المعرفة التي يتم تحقيقها بصعوبة قصيرة العمر.

وفي شهر تموز الماضي قابلت ميغان أو سوليفان في القصر وقد عاشت تجربة غير سعيدة في ظل جاي غارنر، وأصبحت واحدة من مستشاري بول بريمر الرئيسين للمسائل السياسية. كانت ترتدي بنطال جينز وقميصاً أخضر بأكمام طويلة وكان على وجهها النحيل قليل من مواد التجميل، كما كان شعرها الداكن المائل للحمرة مربوطاً إلى الخلف، وأظافر أصابع أرجلها مطلية بالصباغ. لقد تولد لدي الإحساس بأن الاهتمام بالمظاهر كان جزءاً من الحفاظ على المعنويات. كانت تعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم دون إجازات، حيث كانت تأوي إلى السرير نحو الساعة الواحدة صباحاً ويرن جرس هاتفها في الساعة السادسة. وقد قالت: «هناك القليل جدًّا مما يمكن القيام به للتسلية. لقد عاد بعض زملائها، الذين قدموا مع غارنر، أدراجهم بينما كان آخرون يوشكون على إنهاء جولاتهم غير أن أوسوليفان قد وقّعت بالموافقة على قضاء المدة على الرغم من أن ذلك كان يعني التخلي عن مركز في مجلس الأمن القومي. لقد أرادت أن ترى الصورة كاملة، حسبما قالت، وظنت أن بوسعها أن تحدث فرقاً في بغداد، أكثر مما يمكن أن تحدثه في واشنطن.

جلسنا في فراغ المعبد الذي يتردد فيه الصدى، وبابتسامة لا تنم على السرور، أخبرتني عن أحلامها؛ ففي أحد الأحلام رأت القصر مملوءاً بالدخان، وكان هناك إطلاق نار ولم تتمكن من إيجاد مخرج، وقالت لنفسها بهدوء: حسناً إن الوضع ينطوي على خطر، وربما أقتل. وفي حلم آخر ألقت بها طائرة طوافة من طراز (بلاك هوك) في وسط الصحراء، ثم أقلعت تاركة إياها وحدها، فاستيقظت من حلمها ذاك وهي تصرخ. قالت: «حينها حاولت أن أتذكر أين كنت» ثم أردفت تقول: «لقد كنت وسط الصحراء وحيدة». كانت تقيم في طابق علوي في فندق الرشيد على حافة المنطقة الخضراء. وعلى الرغم من أن الغرفة كانت أكثر راحة من مقطورة، إلا أنها لم تكن مرتاحة في إقامتها هناك: تلقّت سلطة الائتلاف المؤقتة معلومات استخبارية بأن فندق الرشيد يشكل خطراً أمنياً. وفي صباح يوم باكر بعد ذلك بشهرين، في شهر أكتوبر/ تشرين الأول، بينما كان وولفوفيتز يقيم في فندق الرشيد تعرض الفندق للقصف بستة صواريخ. وقد أغلق باب غرفة أو سوليفان جراء قوة الانفجار وحرارته، وبدأت الغرفة تمتلئ دخاناً كما شاهدت في حلمها، عندما هدأ ضجيج الطائرة ومضى طاقم الإنقاذ، ولم يأتِ أحد لإنقاذها، فتسلقت من نافذتها في الطابق العاشر إلى

حيـز بيتـوني متدلٍ، وشـقت طريقها عبر النافـذة المقبلة التي صـادف أن كانـت مفتوحة، فأنقذت نفسها. بحلول الساعة الثامنة والنصف صباحاً كانت على مكتبها تعمل على طلبات بريمر من واشنطن.

لقد اسـتغرق عمل السياسـة رفيعة المستوى لسـلطة الائتلاف المؤقتة سوليفان بالكامل، ومع ذلك ظل جزء من ذهنها مفتوحاً على الشك الذي من شأنه أن يضغط على أي شخص جيـد. في بداية الأمر كان العراقيون يقتربون منها في الشـارع؛ كي يعربوا عن شـكرهم لها لتحريرهم. وقد وجدت -وكان من الصـعب عليها الاعـتراف بذلك- أنهم كانوا يريدون أن تعطـى لهـم التعليمـات، وكان فريق غارنر قد ارتكـب خطأً فادحاً بمحاولة عدم التصـرف كالحكام. فقد استمرت أعمال السلب وفراغ السلطة في الأيام الأولى بتقويض عمل الاحتلال من أصغر التفاصيل اللوجستية إلى السؤال الكبير حول: هل كان العراقيون سيؤيدون المشروع الأميركي؟، وهل كانت أميركة قادرة على بناء أمة على هذا المقياس؟ أم هل ينبغي أن يتسلم العراقيون المسـؤولية؟ مع ذلك، كانت المؤسسـات العراقيـة، في طورها الجنيني، التي كانت سلطة الائتلاف المؤقتة تحاول إقامتها دائماً على حافة الانهيار.

في اليوم الذي سـقطت فيه سـايغون بأيدي القوات الفييتنامية الشـمالية في عام 1975، وجد الكاتب البريطاني جيمس فينتون قولاً مقتبسـاً معلقاً ضـمن إطار على حائط السفارة الأميركية التي أخليت وسلبت، مفاده: «من الأفضل أن تدعهم يقومون بذلك بشكل غير تام بـدلاً من أن تقوم به أنت بشـكل تـام؛ لأن هذا بلدهم وطريقهم، ولأن وقتك قصـير». كانت الكلمات مقتبسة من تي. إي لورانس.

كـوّن إخفـاق الأسـبوع الأول واسـتبدال بريمر بغارنر رؤيـة جديدة للـدور الأميركي في العراق. ومنع البنتاغون تدوين خطة إستراتيجية جديّة، والآن بدأت سلطة الائتلاف المؤقتة تحـت إمرة بريمر بالتخطيـط بقوة، مجبرة البيت الأبيض والبنتاغون بشـكل أسـاس على المضـي بالمبـادرات التي اتخذت في بغداد. وكانت سـلطة الائتلاف سـتملأ جميع الفراغات التي تركها منظّرو الحرب في واشـنطن الذين تخيّلوا أن الحرية والديمقراطية سـتظهران في العـراق بشـكل عفوي، وشـملت الخطط الجديـدة أهدافاً وجداول زمنيـة لتدريب قوات

الأمن العراقية، وكتابة الدستور، وإنشاء هياكل الحكومة الجديدة، والإصلاح الاقتصادي، والإصلاح القانوني، وإصلاح التعليم: لا شيء أقل من إصلاح شامل للمجتمع العراقي، من القمة إلى القاعدة، يبلغ ذروته بعودة السيادة في تاريخ غير محدد.

وقد وصف براد سوانسون -وهو مصري يعمل في مجال الاستثمارات، وصل إلى بغداد بعد أشهر للعمل في سلطة الائتلاف الموحدة في مجال التنمية الاقتصادية- الوضع بهذه الطريقة: «في البداية كانت هناك مرحلة الاستبداد، ثم مرحلة الاستكبار. كانت مرحلة الاستبداد تُجرى برجال وخطط وموارد غير كافية، لتزيل الطبقة العليا من القيادة، وتسيطر على دولة تعمل، وتخرج في غضون ستة أسابيع، وتحصل على أموال النفط لدفع تكاليفها. نحن جميعاً نعلم أنها لم تنجح لأسباب عديدة. لذا فإنك تنتقل إلى مرحلة الاستكبار: فقد تم صفعنا على وجوهنا، وهذا أخطر مما ظننا، وأطول أمداً، وأكثر تكلفة. لذا فسنهاجمه بكل ما لدينا، سنرمي عليه بمليارات من الدولارات، ولكي نأخذ العراق للمستقبل بأمان فعلينا أن نقوم بتغيير جذري للبلاد حسب نظرتنا». أضاف سوانسون: «لقد بدا الموقفان كطرفي نقيض، لكن كان بينهما أمر مشترك. فكلاهما تصوري وعقديّ وهما ليسا ردوداً براغماتية لفهم مفصل للحقائق على الأرض».

بمثل هذا التعهد الطموح واجهت سلطة الائتلاف الموحدة، ولم تواجه بأشكال أخرى مفارقة لا يمكن تفاديها، كان الأميركيون يحاولون إعادة بناء العراق بطريقة تسمح للعراقيين أول مرة في تاريخهم بأن يقرروا مصيرهم بأنفسهم، لكن إذا بقيت السلطة والمال والسلاح والأفكار بيد الأميركيين كيف يمكن لجميع الخطط أن تؤدي إلى سيطرة العراقيين؟

في الطابق الثاني من القصر، حيث كانت مكاتب كبار مستشاري الوزراء، كان درو إيردمان يحاول التفاوض على المفارقة كل يوم وقد أعياه الجهد. كان الناس الذين بالكاد يعرفهم يقولون له: «إنك تبدو مرهقاً» وكان مزاجه أسوأ مما كان عليه في أي يوم مضى.

قال إيردمانك: «إن الشيء الذي أكافحه باستمرار، وهذا هو الجزء الأميركي منك، ولست أعلم: هل كانت تلك صفة وطنية أنك تريد تماماً أن تنجز الأمور. بيد أنه لا يمكنك

بالطبع مواصلة القيام بذلك، وليس بوسعك مواصلة فعل ذلك من أجل أولئك الناس. ويتعين عليك أن تدعهم يخفقون في بعض الأحيان، وأنت تعلم أن ذلك سيحدث». وأعطاني مثالاً: ففي اجتماع مؤخراً حول الميزانيات طلب أحد رؤساء الجامعات مضاعفة حجم قسمه في أثناء الأشهر الستة المقبلة. «في حالة وصلت فيها البلاد إلى هذا. ماذا تعتقد؟ أي لماذا حتى.... على أي كوكب أولئك الناس؟ إن الأمر يصل إلى حد يتحدى المنطق. فلا يمكن لأي كان في العالم إلا أن يضحك من ذلك. ولكن يتعين عليك القيام بذلك». فبهذا العدد الكبير من الناس ذوي المستوى العالي من التعليم والمهارة الفنية في العراق استنتج إيردمان أن عدم الكفاية الإدارية ينبغي أن يكون نتاج الآثار المهلكة للعيش في هذه الدولة الاستخبارية الذي أنهك الناس لهذه الدرجة».

قرر إيردمان منذ البداية أن يضع أكبر قدر ممكن من السلطة بيد العراقيين. ففي شهر أيار، بعد أن أقنع كل رؤساء الجامعات، المعينين في ظل عهد صدام أن يستقيلوا، ثم أعلن إيردمان أن اختيار البدلاء سيتم في انتخابات علنية تجريها الكليّات، ولم يتوصل إلى هذا القرار إلا بعد نقاش مكثف ضمن سلطة الائتلاف المؤقتة، وفريقه المكوّن من العراقيين بمعظمه، وهو نفسه. قد تكون تلك العملية من بين أولى الانتخابات في العراق، وخشي بعضهم في واشنطن وبغداد أن البعثيين والمتطرفين الدينيين قد يتمكنون من سرقة أي انتخابات. بيد أن إيردمان خلص للاستنتاج أن منح الثقة للكليات العراقية، وإن لم يخلُ الأمر من المخاطرة، كان أفضل خيار متوافر. فمع استحالة الاتصالات تقريباً في أجزاء كبيرة من البلاد لم تكن لدى سلطة الائتلاف المؤقتة فكرة حول المرشحين الأفضل. كان ذلك هو السبب العملي. وكان السبب الرئيس هو جعل العراقيين ينخرطون بسرعة، وجعلهم يشعرون أن عهداً جديداً قد بدأ حقًّا. وعزم إيردمان على أن يستقيل إذا اعترض المدير الواصل حديثاً على الفكرة؛ لأن مصداقيته لدى المربين العراقيين تكون قد ولت منذ البداية. لكن الانتخابات مضت قدماً بدعم من بريمر في منتصف أيار.

في 17 أيار اجتمع سبع مئة عضو هيئة تدريسية من الكليات في مسرح جامعة بغداد بجوه الحار، بوجود فريق محطة CNN والجزيرة ووسائل إعلامية أخرى. وقف إيردمان في

بذلته الصيفية والعرق يتصبب منه ليدلي بكلمة قصيرة إيذاناً بالافتتاح. فقال: «لقد حان الوقت كي نشهد تغيراً رئيساً وتحريراً للمؤسسة الأكاديمية من النظام القديم». واستطرد قائلاً: «وتعيين قيادة جديدة تكون جزءاً من ذلك. لقد حصل تغيير في نظام الحكم، وهذه فرصة كبرى للإتيان بعهد جديد». ثم تنحّى جانباً؛ كي يتيح الفرصة للعراقيين لتسيير عملية الترشيح والمراقبة والتصويت وعد الأصوات، وكان الفائز الدكتور سامي مظفر، وهو كيميائي حيوي، يحترمه الجميع؛ لنزاهته في ظل حكم صدام.

وفي كلية طب الأسنان، أصر الطلبة على حضور التصويت. فعارض إيردمان، حيث أرادت المجموعات كافة التجمع في القاعات والتأثير في النتيجة، ثم وافق على إدخال طالب واحد بصفة ضيف. وجرى التصويت بطريقة الاقتراع السري، وبينما كانت الأصوات للمرشحين اللذين يتصدران النتائج تدون على السبورة في قاعة المحاضرات التي كانت تعج بالحضور بدأ الطالب الذي يقف بجانب إيردمان بالصراخ. لم يسبق له أن رأى شيئاً من هذا القبيل. ثم قال: «هذه استجابة لصلواتي» وأردف قائلاً: «لقد صلينا من أجل أن نرى ذلك يتحقق».

لقد قامر إيردمان وربح. كانت هناك شبكة أمان -فإذا قامت كلية باختيار لا توافق عليه سلطة الائتلاف المؤقتة يتم شطب اسم المرشح- لكن السماح بحرية الاختيار، ثم التدخل قد يكون أسوأ من عدم السير في ذلك الطريق مطلقاً (وقد حدث ذلك في بداية الاحتلال عندما قام قادة البحرية في النجف بتنظيم انتخاب لحكومة محافظة، فما كان من سلطة الائتلاف المؤقتة في بغداد إلا أن قامت بإصدار أمر إيقافها في الدقيقة الأخيرة. مما أثار غضب أهل النجف وتساؤلهم حول التزام الأميركيين الحقيقي بالديمقراطية). وكانت المفاضلة بين السيطرة والشرعية هي المعضلة المتكررة عند قرار لسلطة الائتلاف المؤقتة، وكانت العشرات من القرارات تُتخذ كل يوم من قبل بشر غير معصومين، وكان كل من تلك القرارات يدفع بالمشروع في هذا الاتجاه أو ذاك. قال إيردمان: إن العراق لا يزال سائلاً ولا يزال كالبلاستيك الليّن، لكنه سيقسو قريباً. كانت المطالب النفسية للاحتلال رهيبة. وقال: «إن الأمر يحتاج لحسنٍ المحاكمة. بعض الناس يمكن أن يبحروا وبعضهم لا. وبعض الناس يمكن أن يرتكبوا خطأ ثم يقوّمونه، بينما لا يستطيع غيرهم فعل ذلك. ويتعلق الكثير من ذلك بحكمة الناس وتعقلهم وحسن حكمهم على الأمور».

اتجهت قراءات الأميركيين في وقت راحتهم في العراق نحو المقايسات غير السارّة، حروب العصابات، والسلام غير المتقن، المحقق بطريقة خرقاء. كان الكولونيل وليام غريمسلي، قائد لواء مشاة، يقرأ كتاب War of Peace A Savage /حرب سلام وحشية، وهو دراسة لأليستار هورنيه عن الصراع الفرنسي الجزائري: «هناك كثير من أوجه الشبه مع هذا المكان». وفي خيمة جوردام بيكر، وهو ملازم في الرابعة والعشرين من عمره، في كركوك، كان هناك رفّ عليه عدة كتب حول التاريخ الكردي والعراقي، وكتاب عن الحرب الأهلية الجزائرية في الآونة الأخيرة، وكتاب Four Hours in My Lai /أربع ساعات في ماي لي. كما غاص دروإيردمان في كتاب دافيد فرومكين A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East/ سلام ينهي كل السلام: انهيار الإمبراطورية العثمانية، وإنشاء الشرق الأوسط الحديث، وكذلك رواية مينارد كينيز حول مؤتمر سلام باريس عام 1919. لم يكن لدى أحد في سلطة الائتلاف المؤقتة الكثير من الوقت للقراءة أو حتى للتفكير.

في الطابق الأول من القصر، مقابل القبة المستديرة، بعد كاشف المعادن والحراس الشخصيين، كان مكتب بول بريمر الطويل وعالي السقف مليئاً برفوف الكتب التي كانت شبه خالية عندما قمت بزيارته. كان على أحد الرفوف كتاب Leadership/ القيادة لرودولف جيولياني، وكتاب عن إدارة الأزمات المالية على رف آخر. وكان على مكتب بريمر كتاب قرب قطعة من الخشب محفور عليها عنوانه «للنجاح ألف أب»، تقارير حول عراق ما بعد الحرب، وكان على طاولة القهوة كومة من الخرائط: شبكة الطاقة في العراق والمناطق الإدارية والخطوط الحديدية. كان بريمر في الحادية والستين، وكان له شعر كثيف وعينان صبيانيتان وفك عنيد كفك كندي، كان رجلاً منضبطاً بدرجة حرارة لا تتغير.

لقد سبق له أن عمل مسؤولاً في مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية، وسفيراً لدى هولندة، ثم أصبح المدير العام لمؤسسة هنري كيسينجر الاستشارية. وكان بريمر أيضاً «من المؤسسين الجمهوريين» محافظاً جدّاً. وقد شكلت تلك الخلفية مزيجاً ممتعاً ضلل الفئات البسيطة من المحافظين الجدد والواقعيين في واشنطن، في وزارتي الدفاع والخارجية. فقد كان مقبولاً لدى الوزارتين، بيد أنه كان تحت إمرة وزير الدفاع، وكان في البداية ينفذ

سياسات نشأت في البنتاغون. وكان يتحلى بالدافع والطاقة، ولا تنقصه الثقة بالنفس. وعلى الرغم من أنه اعترف في جلسة خاصة قبل أن يغادر إلى بغداد أنه كانت لديه تساؤلات حول الحكمة من الحرب، إلا أنه اتجه نحو إدارة العراق بوصفه مدير شركة متطلباً يصر على النتائج السريعة والقابلة للقياس من موظفيه، وكان يكره المفاجآت والنكسات متصوراً أن بوسعه أن يتغلب على المحَن بقوة شخصيته. وصفه الأشخاص الذين عملوا معه بأنه رئيس شديد جدًّا -وقال أحدهم عن نفسه: إنه «تطبع بطبع بريمر» في الاجتماعات- وقد حاولوا جاهدين كي يجعلوه سعيداً حين لم تكن الحقائق تضمن ذلك.

وصل بريمر في 12 أيار، ولم يكن يعرف عن العراق شيئاً تقريباً، وقبل وصوله إلى بغداد بأربعة أيام اتخذ بريمر ثلاثة قرارات مهمة جدًّا. فقد أقدم على حل الجيش العراقي، وطرد البعثيين ذوي المناصب العليا من الخدمة المدنية، كما أوقف تشكيل حكومة مؤقتة. لكن أي مبعوث أكثر حذراً كان يأتي إلى العراق ويتحدث إلى عدد من العراقيين قبل الإقدام على اتخاذ خطوات بعيدة الأثر كهذه. وصل بريمر في خضم انهيار عام، ولم تترك تحركاته الأولى أي شك في أنه أضحى الآن من يتحكم في مجرى الأمور، بيد أن قراراته غيّرت أو عكست السياسات التي وضعت بتهور، وأقرّها الرئيس قبل وقوع الحرب بأسبوع، وكذلك القرارات التي كان غارنر يرتجلها على الأرض. وعندما اعترض غارنر على عمق اجتثاث البعث رفض بريمر تعديل الخطة وقال: «لدي تعليماتي». وقد عكست القرارات بشأن حزب البعث والجيش الآراء التي كانت لدى المحافظين الجدد في الإدارة (وكذلك الجلبي) في حين أن تأجيل الحكومة المؤقتة وقتاً غير محدود كان بمنزلة لعنة حلّت بهم. وهكذا أطلقت سلطة الائتلاف المؤقتة بخليط من التحركات المرتجلة التي لم تعكس إستراتيجية وكالة واحدة، ولم تعكس أي إستراتيجية مدروسة، لم تعكس إلا تأكيداً متأخراً للسيطرة الأميركية. وقد قال الناس الذين عرفوا بريمر: إنه لم يكن ليقبل ذلك العمل شبه المستحيل لو لم يضمن أن لديه نطاقاً واسعاً من الحرية للقيام به بالشكل الذي يراه مناسباً، كان في ذلك كما في كل شيء آخر نقيضاً لسلفه.

قال لي لاحقاً جاي غارنر الذي سلّم مقاليد الأمور لبريمر: إنه استيقظ صباح يوم السبت 17 أيار ليجد ثلاث مئة أو أربع مئة ألف من الأعداء، ولم يجد عراقياً واحداً في الحكومة».

كانت طريقة غارنر تتجلى في التخلص بأقل قدر ممكن من النظام القديم، بإزاحة حفنة من كبار البعثيين الذين كانوا يشغلون المناصب العليا، ومحاولة العمل مع الباقي. وكانت الفكرة، كما ذكرت بربارة بودين، تقضي بقبول أي واحد من أصحاب الكفاية الذين لم تتلطخ أيديهم بالجرائم أو الفساد. وقد أدى ذلك إلى بعض الإحراجات؛ كما حدث عندما اختير أحد البعثيين لمنصب وزير الصحة، فقام الأطباء باحتجاجات، ورفض الوزير أن يتبرأ من الحزب. بيد أن الأميركيين كانوا يخطون بحذر، حتى جاء بريمر بأمر اجتثاث البعث في 16 أيار ومنع الطبقات الأربع العليا كاملة من العمل في الخدمة المدنية حتى مستوى الفرقة، أي أولئك المسؤولين عما يصل إلى خمسين من الأعضاء الأقل رتبة، سواء كانوا متورطين في جرائم فعلية أم لا. وقد لا يقل عن خمسة وثلاثين ألف موظف، معظمهم من السنة، من طبقة الموظفين بمن فيهم آلاف المدرسين والموظفين من المستوى المتوسط، وظائفهم بين عشية وضحاها، وأصبح المسؤولون الأميركيون الذين بدؤوا بإقامة علاقات مع العراقيين في الوزارات والمكاتب الأخرى فجأة دون شركاء. وقد سمح الأمر للعراقيين بالتقدم بطلبات استرحام وإعادة الحصول، من حيث المبدأ، على وظائفهم، غير أن سلطة الائتلاف المؤقتة لم تكن مهيأة لسماع الشكاوى بسرعة كافية؛ لتحول دون دخول آلاف الناس عالم النسيان وبقائهم دون منصب أو أجر.

قال لي أحد كبار مستشاري بريمر: «يحب بريمر أن يقول: إن هذا كان أكثر قرار اتخذه شعبية، وأظن أنه مصيب»، ثم أردف يقول: «غير أن الذين كان له شعبية بينهم كانوا معنا من قبل. أعتقد أن تلك القاعدة صلبة، فإذا أردت القدوم وإصلاح الأمور عليك أن تأتي دون حقد على أحد، وأن تبادر الجميع بالخير. عليك اتخاذ طريقة كطريقة لنكولن. قال لي الناس في الفلوجة: «كنا سعداء عندما أطحتم بصدام، لكن ما قمتم به بعد ذلك هو ما أغضبنا. لقد كانت طريقتنا خاطئة برمّتها».

كان البديل يمكن أن يكون محاكمة البعثيين المتهمين بارتكاب الجرائم، والقضاء على الفساد، وعدم الكفاية حالة تلو أخرى، والاحتفاظ بالباقين، وتشكيل هيئة للحقيقة والمصالحة على صعيد البلد كاملاً سيراً على خطى تجربة جنوب إفريقية. لكن اجتثاث البعث كان الموضوع الثابت للمجموعات العراقية المغتربة وحلفائهم في البنتاغون. وكانت

السابقة الواضحة هي اجتثاث النازية في ألمانية. ومع ذلك حتى التقرير حول الانتقال للديمقراطية في العراق لم يقترح أي شيء بعمق الأمر الذي أصدره بريمر؛ فقد ركز كنعان مكية في المقام الأول على الحاجة لتطهير المجتمع العراقي من العقيدة البعثية الذي من شأنه أن يكون مشروع سنوات عديدة. وقد أبلغني دوغلاس فيث أن سياسة قطع أربعة مستويات في هرمية الحزب قد نشأت في البنتاغون، ورأى بعض المراقبين أيضاً يداً لأحمد الجلبي الذي سرعان ما ربح السيطرة على هيئة اجتثاث البعث، واستخدمها للضغط على خصومه السياسيين.

التقيت في كركوك بشمال العراق أباً لتسعة أبناء، ومعه كؤوس وزجاجة كولا، اسمه عثمان علي صديق. وكان يعمل مشرفاً فنياً على الحريق والسلامة في شركة نفط، حتى تركه أمر بريمر عاطلاً عن العمل، وكانت السنوات الثماني والعشرين التي قضاها في خدمة الشركة أقل أربع سنوات من خدمته لحزب البعث الذي ترقّى فيه لمستوى جعله مسؤولاً عن الاحتفاظ بقوائم مئتي أسرة. وقال يومها: «إن لكل بلد نظامه الخاص به. وفي العراق كان حزب البعث». ووصف عمله في الحزب بأنه نوع من أداء واجب مدني، كمن يؤدي خدمة في مجلس النوّاب، ولم ينل شيئاً لقاء آلامه سوى طرده من الوظيفة، كما ذكر. لم يقدّم في حياته تقريراً سيئاً بحق أي كان؛ ولم يَرَ أي دليل على جرائم البعثيين. «ما سمعته عن هذه المقابر الجماعية هو أن عمرها آلاف السنين». ولم يعد لديه سبيل لتأمين قوت عائلته الآن إلا العمل سائق أجرة. وأشار إلى أنه لو كان أصغر سناً لحمل بندقية وحارب ضد الاحتلال، فلم يكن أحد في مستواه الحزبي نظيف اليد. بدا أمر اجتثاث البعث محصّناً. وكانت تلك الأمور أكثر وضوحاً قبل اندلاع أعمال التمرّد، وبدأ منتقدو بريمر يشيرون إلى أمر 16 أيار على أنه قرار أدى إلى تفاقم الوضع. كانت سياسة المحتل الظن أنه لم يكن بحاجة للقلق بشأن استعداء الناس. وكان درو إيردمان يحب القول: إن السياسة الخارجية الأميركية بأفضل أحوالها كانت تتبع القول المأثور بأن الشيء الصحيح هو الشيء الحكيم، وفي العراق كان القيام بذلك يزداد صعوبة أكثر، فأكثر.

كان إيردمان الذي تعين عليه طرد ألف وسبع مئة أستاذ وموظف جامعي بعثي من وظائفهم يرى التشبيه بوضع ألمانية ملائماً. وكان يغضب من أي فكرة بأن الحرية الأكاديمية قد تكون

على المحك، وقال: «في حزيران 1945 لم تكن لتناقش بشأن شرعية العقيدة النازية وشرعية الحزب النازي وأنت جالس في ألمانية»، واستطرد يقول: «ليس ذلك أكاديمياً! لم تمضِ إلا عدة أشهر، ومازال الناس يعيشون بجوار بعضهم، ومازالوا يعملون بجوار بعضهم، ومازالوا في الحرم الجامعي، ها هم مازالوا في الديار ومازالوا يهدّدون».

أوضح إيردمان تأييده لاجتثاث البعث، حين أخبرني عن مكافأة صدام. فعلى مقياس جرائم الدكتاتور لم تكن مكافأة صدام إلا عملاً وحشياً بسيطاً. بموجب نظام القبول في الجامعة العراقية كان الطلبة يصنفون حسب علاماتهم في الامتحان، مع قيام الآلاف بالتقدم بطلبات قبول لعدد محدود من الكراسي، حيث كانت بضع درجات تجعل الأمر جدّ مختلف. كانت مكافأة صدام تمنح خمس درجات إضافية لطلبة الشهادة الثانوية الذين يتزوجون من أرامل الحرب الإيرانية العراقية، وغالباً ما كانت تلك الأرامل ضعف أعمار من يتزوجونهن. قال إيردمان: «هذه ليست إلا بداية لهذا المثال اللعين»، وكان آخر وزير للتعليم العالي في ظل نظام حكم صدام قد سحب علامات من بعض من قدّموا طلبات بعد أن قرّر أن الزيجات كانت تنطوي على الاحتيال». وقد راجعني أولئك الشبان على أمل استرجاع درجات مكافآتهم»، قال إيردمان باستغراب. «أنا رجل التحالف الأميركي! إنهم يظنون أنني سأعطيهم علامات مكافآت صدام عن زواج مزيف؟ ممن رمّلتهنّ الحرب؟ هذا هو مثالي عن كيفية التسلل بطريقة تنطوي على الحيلة، وعليك أن تضرب ذلك بأعداد كبيرة كي تفهم العمق الذي وصل إليه الأمر، وكم كان مظلماً وملتوياً».

كان حلّ الجيش أصعب تسويغاً، حتى في ذلك الحين، وكان يُنظر إليه على أنه إحدى كوارث الحرب. فبجرّة قلم ترك بريمر مئات الآلاف من قوات الجيش العراقي في الشارع دون عمل لهم أو أجر، ولا يمكن أن تقوم بهذا الأمر إلا قوة محتلة تأكدت من هزيمة عدوها. ولم يكن لهذا الأمر شعبية لدى ضباط الجيش الأميركي الذين لم يجدوا صعوبة في إدراك العواقب الإستراتيجية في بلد كانت البطالة فيه تزيد على 50%.

وقد قال دوغلاس فيث وآخرون غيره فيما بعد: إن الجيش العراقي سبق أن سرّح نفسه قبل وصول القوات الغازية، عندما ذهب الجنود إلى بيوتهم بدلاً من أن يذهبوا إلى القتال.

أما أمر حلّ الجيش فقد جعل الأمر رسمياً فقط. قال لي وولتر سلوكومب، وهو ديمقراطي كبير من القلائل في سلطة الائتلاف المؤقتة كان بمنزلة فيث لدى كلينتون، وهو الذي طلب منه فيث إعادة بناء الجيش العراقي بعد الحرب: «لم يبقَ هناك أي جيش. وكان افتراضنا بأن تكون لدينا وحدات رئيسة سليمة افتراضاً خاطئاً. ترى ما الذي سنفعله؟ لم يكن ثمة ما نقرّره». وربما كان من الاستحالة والحماقة بمكان كذلك إعادة الوحدات إلى الخدمة. حسب قول سلوكومب، فمعظم المجندين الشيعة كانوا سعداء في أن يمضوا إلى بيوتهم، وألا يتم استدعاؤهم لا حباً أو طمعاً بالمال؛ كما أن جيشاً عراقياً مكوناً من بقايا قوات معظمهم من السنة من شأنه أن يدفع بأغلبية العراقيين للانخراط في صفوف المعارضة.

في الأسبوعين الأولين من أيار كان الكولونيل بول هيوز، رئيس التخطيط لدى غارنر، مجتمعاً بمجموعة قوامها ثمانية جنرالات عراقيين وعقيدين لتنظيم توزيع أجور قدرها عشرين دولاراً لكل من الجنود العاديين. وقد اجتمع هيوز بالضباط العراقيين في نادي ضباط الحرس الجمهوريين، وهو عبارة عن بناء زجاجي أنيق جرى نهبه بصورة جزئية. كان العراقيون الذين تبقوا من الجيش المهزوم يرتدون المعاطف وربطات العنق، ويبدو عليهم القلق. وقال هيوز: «كانوا يعلمون أنهم في قبضتي، وقد أخبرتهم أن مستقبل العراق ملك لأطفالهم، وقد اتضح لي أنهم لم يكونوا ضباطاً يكنّون الولاء لصدام حسين، وإلا لما تحدثوا إلي. فقلت لهم: (الأحرى بكم يا رجال، ألا تكونوا بعثيين؛ لأنكم إذا كنتم بعثيين فسأنال منكم). كان العراقيون يريدون أن يتعاونوا وبعد أربعة اجتماعات كانوا قد جمعوا أسماء مئة ألف جندي. أحس هيوز بمستوى من الثقة في حسن النية الأميركية. وبدأ يعمل على تأمين المال في سلطة الائتلاف المؤقتة. ولم يبدُ أن أحداً في واشنطن كان يهتم بالأمر بشكل أو بآخر.

قال لي هيوز: «كل من قام بعمل بعد النزاع يقول: لا تتخلصوا من العسكريين، بل عليكم السيطرة عليهم، فلا تدرون ما الذي سيفعلونه إذا لم تسيطروا عليهم. طالما أننا دفعنا لهم عشرين دولاراً كانوا سيرقصون لنا».

في منتصف مايو/أيار عاد هيوز إلى الوطن في إجازة قصيرة لحضور تخرج ابنته في الجامعة. وقبل عودته إلى العراق بيوم واحد فتح التلفاز، وسمع خبر حلّ الجيش العراقي

دون دفع شيء للجنود. وبعد عودته للقصر الجمهوري أتى ثلاثة ضباط من المجموعة التي كان قد اجتمع بها في نادي الضباط لمقابلته. نزل هيوز كي يقابلهم في البناء الدائري: «لم أستطع أن أنظر إلى وجوههم. شعرت بالخزي تماماً، وبأنني فقدت الثقة في نظرهم». فأكّد لهم هيوز بأنه سيحاول بطريقة ما إيجاد طريقة لتغطية الرواتب. شكره العراقيون. لقد كانوا حقًّا لطفاء بكل ما في الكلمة من معنى، وذلك ما قطّع قلبي، حيث إنني بنيت الثقة مع أولئك الرجال، واتخذ أناس خطوات لتخريب تلك الثقة».

فيما يتعلق بهيوز كان حل الجيش العراقي منعطفاً حاسماً للوجود الأميركي في العراق، حيث قال: «من وجهة النظر العراقية أودى ذلك العمل البسيط برمز السيادة الوحيد الذي بقي لدى الشعب العراقي. عندما تجاوزنا الحد، لم نعد محررين، وأصبحنا محتلين». وأرغمت أعمال شغب قاتلة قام بها الجنود المنبوذون في بوابة الحشاشين سلطة الائتلاف المؤقتة على البدء بالدفع لأولئك الرجال الذين طردتهم.

صدر كلا الأمرين من البنتاغون، على الأرجح من مكتب نائب الرئيس. كان قرار بريمر بحلّ مجموعة القيادة العراقية التي كان غارنر ينظمها، وبتجميع المزيد من السلطة بيده وبيد سلطة الائتلاف المؤقتة مبادرة منه شخصياً. وحين ساء الاحتلال أخذ المحافظون الجدد داخل الإدارة وخارجها يتّهمون بريمر بأنه هو المسؤول، وقالوا: إنه لو تم اتباع فكرتهم في وضع المغتربين بقيادة الجلبي في السلطة مبكراً لما أصبحت أمريكة محتلاً غير مرغوب فيه. والعيب الأساس بين العيوب الكثيرة لهذه المناقشة هو أن كل ما فعله بريمر كان بموافقة رامسفيلد الذي طالب بتولي أمور العراق ما بعد الحرب. وقال مسؤول كبير كان مشاركاً في التخطيط لحرب العراق: «إنه لأمر مضحك تماماً أن يقول شخص في مكتب رامسفيلد: «آه لو أوكل الأمر لنا. لقد كان الأمر بأيديهم بالفعل. وذلك هو الوجه الآخر للعملة. لقد حول بريمر نفسه بشكل متزايد إلى نائب ملك مسؤول أمام الله فقط، وحملته نزوة السيطرة على المضي في ذلك. إنه أمر مذهل».

بحلول منتصف الصيف كان بعض مساعدي بريمر يقرون سرّاً بأن الأوامر لم يتم التفكير فيها برويّة. وقد قال أحد كبار المستشارين عنه: «لقد كان شخصاً ديناميكياً جدًّا ورجلاً قادراً ومخلصاً جدًّا، لكنه كان على عجلة من أمره، وكان يتخذ قراراته بسرعة»،

كما رأى المستشـار أن أصول التمرّد تكمن في بعض تلك القرارات. «مع مرور الزمن خلصنا جميعاً للاعتقاد أننا كنا نوجد أعداءً لنا في العراق. وباعتقادي الشخصي، إن التمرّد المسلح في العراق كان نتيجة لتلك الأخطاء الأولى في السياسة؛ حيث أخفقنا في إيقاف أعمال السلب كما أخفقنا في إنشـاء سـيطرة ثابتة بسـرعة، فضـلاً عن أن القرارات الأولى التي اتخذها بريمر عند وصـوله أغضـبت العراقيين». أما بريمر فلم يعترف بأي من هذا. لقد لفت نظر الزائرين من واشـنطن ثقته المطلقة بنفسـه، لقد كان واثقاً في نفسه أكثر من اللازم، وكان يعتمد التكهن إلى حد كبير؛ لأنه لم يكن يعرف البلد، وكان محاطاً بمستشـارين ليسـوا أكثر اطلاعاً منه، كان يتخيل أن العراق كألمانية ما بعد الحرب أو أوروبة بعد الشـيوعية، ومضـى في خططه قدماً لتطبيق المعالجة بالصـدمة الاقتصادية وخصخصة صناعات الدولة، على الرغـم من معدلات البطالة المرتفعة، وينفذ الرؤية العقديَّة كأن الإرادة والتصـميم هما ما يهـم. وبانتهاء ولاية سـلطة الائتلاف المؤقتة قال سياسـي عراقـي كان على معرفة ببريمر: إنه بدأ يفهم أخطاءه المبكرة، ومع مرور الزمن أصـبحت قراراته أقل عقديَّة وأكثر تناغماً، بشكل خاص مع الواقع الذي وجد نفسه فيه، وهكذا وضع خطط الخصخصة جانباً، وعكس اجتثاث البعث بصـورة جزئية. فلو أنه انتظر بضـعة أشهر لما كان بريمر قد اتخذ الخيارات القاتلة في أيامه الأولى في بغداد.

لقد كان العراق أزمة دائمة لا تتوقف، ووجدت سـلطة الائتلاف المؤقتة نفسها فيما يشبه الفقاعـة، من حيث المسـاحة والـدوام؛ وكان أي اهتمـام في ماضٍ أو حاضـر يبعد أكثر من ثلاثـين يومـاً يعدّ نوعاً مـن الرفاهية. عندما ذهبت لأراه في منتصـف أغسـطس/ آب عام 2003، كان بريمر منغمسـاً كلياً في تفصـيلات تسيير البلاد، سألته سؤالاً واحداً عن سوابق تاريخـه الوظيفـي، فانتقل مباشـرة إلى الحاجة الفوريـة لمولد كهربائي طاقتـه 20 كيلواط لمصـفاة النفط في البصرة، كانت أعمال الشـغب قد اندلعت في البصرة ذلك الأسبوع على طول خطوط النفط المرتبطة مباشرة بنقص الكهرباء الذي كان قد وصل إلى مرحلة حرجة. كان يرتدي قميصـاً أبيض أكمامه مرفوعة وبزة باللون الخاكي وجزمة عسكرية، واتكأ على طاولة القهوة، حيث جلسـنا، وبسـط خريطة لشـبكة الكهرباء؛ كي يريني السبب الذي جعل النظام القائم في هذا الوضـع اليائس، ولماذا لا يزال الطلب يتجاوز العرض. وضـعت سلطة

الائتلاف المؤقتة حالياً خطة لزيادة قدرة الإنتاج الكهربائي، وقال: لسوء الحظ، فإن ذلك يكلف مليارات الدولارات. وفي هذه الأثناء كان استياء العراقيين في تزايد، وكانوا يلقون باللوم على الأميركيين.

كان بريمر يتحدث إلى العراقيين مباشرةً كل أسبوع في خطابات يتم بثها عبر التلفاز والإذاعة، وكذلك عبر الاجتماعات مع أصحاب الجاه والنفوذ في سائر أنحاء البلاد. وكان يتمتع بشعبية لا سيما بين النساء، وكان عدد المؤيدين له من أهل بغداد ضعف عدد المعارضين، وفقاً لإحصاء أجرته مؤسسة غالوب (وهذا المعدل يفوق المعدلات التي حصلت عليها سلطة الائتلاف المؤقتة، ويتجاوز كثيراً المعدل الذي حصل عليه بوش الذي لم يكن يعدّ من المفضلين في العاصمة بغداد). كان موقفه من المهمة الرهيبة بقيادة بلد أجنبي -مازال الأميركيون يخوضون فيه حرباً، في أثناء ثورة سياسية واجتماعية واقتصادية- موقفاً فنياً إلى حد كبير. وكان تحت الضغط أو الانتقاد يلجأ للأرقام. وفي أثناء الصيف القاسي أوضح بريمر مراراً وتكراراً أن انقطاع الطاقة كان بسبب نقص القدرة في النظام الذي تفاقم بسبب أعمال النهب وانهيار الإدارة المدنية، لكن الرسالة لم تصل بشكل ما. وكان يذكر العراقيين في أغلب الأحيان أنهم ينعمون الآن بالحرية. وحتى هذا لم يكن ينجح في بعض الأحيان.

عندما سألته: لماذا يبدو أن العراقيين لا يقدّرون ما تدّعي سلطة الائتلاف المؤقتة أنها حققته في أثناء الأشهر الأولى لها؟ أجابني: «عليك أن تفهم الوضع النفسي الذي يعانيه العراقيون. فقد خرجوا من هذه الغرفة المظلمة جدًّا إلى الضوء المبهر في غضون ثلاثة أسابيع، فبدا الأمر وكأن شخصاً ما قد ألقى مفتاحاً، ولذلك فهذا أمر مزعج نفسياً، وإذا كنت عراقياً فإنك ستظل تفكر في أن الحكومة هي التي تصلح الأمور. وها قد أتت حكومة استطاعت الإطاحة بجيش متبجح جدًّا في أثناء ثلاثة أسابيع، فلمَ لا يستطيعون حل مشكلة الكهرباء في ثلاثة أسابيع؟» وأشار بريمر إلى أن الإخفاق في التواصل «ليس مشكلة فنية كتعديل تردّد التلفاز، كي تشاهد القناة الصحيحة، إنها مشكلة نفسية وفكرية».

نهض بريمر وتوجه إلى مكتبه وعاد ببعض الدراسات عن إعادة الإعمار في مدة ما بعد الحرب، كان يقرؤها كلما سمح له الوقت. وقال: «لقد حاولت أن أدرس نوع الأمثلة ذات الصلة عن إعادة الإعمار، وهي أربعة أو خمسة أنواع. هناك اليابان وألمانية بعد

الحرب. وهناك البوسنة، وكوسوفو، وإلى حد ما هناك أفغانستان. ومن بين تلك الدول ربما تكون ألمانية واليابان هما الأقرب؛ لأنهما تورطتا في حرب تبعها احتلال عسكري مادي لهذين البلدين».

ثم فتح كراسة، عليها الكثير من الإشارات، أعدتها مجموعة من الخبراء البريطانيين، ثم بدأ يقرأ بصوت عالٍ: «إن الأمن وحكم القانون أمران جوهريان في المدة التي تلي الحرب مباشرة». حسناً، هذا صحيح. «لم يكن بريمر مهتمّاً في العودة للنظر إلى أعمال النهب، وإخفاقات التخطيط لمرحلة ما بعد الحرب». وقال: «بصراحة ليس لدي وقت للعودة لقراءة ما كنا نعرفه، وما لم نكن نعرفه، ينبغي علي أن أقلق بشأن الغد، يمكن كتابة أطروحات عظيمة لنيل درجة الدكتوراه حول هذا الموضوع». وعاد للقراءة بصوت عالٍ: «الأمن يعني الشرطة المدنية، والقدرة على الاعتقال والاحتجاز ومحاكمة المجرمين، والتقليل من الغطرسة». وهنا ضحك: «هنا يأتي التدقيق وإزالة التلوّث واجتثاث البعث». من الدروس التي يجب أن نتعلمها من ألمانية بوجه خاص، إجراء عملية تدقيق عميقة أولاً والأفضل أن تتم بسرعة، «وهذا ما فعلناه بالضبط. فقد أطحنا بالنظام، وبإمكاننا أن نعيد بناءه من جديد، وبالطبع سنقوم بتسليمه للعراقيين».

ألقى بريمر بالخريطة على طاولة القهوة. وكان يزداد قلقاً، فقد كانت لديه أمور يتعين عليه القيام بها، شكرته وودعته. ولم يدُرْ بيننا حديث بعد ذلك، ولم يُبدِ أي فضول لمعرفة حول ملاحظاتي، (وكان ذلك أمراً مذهلاً في العراق) فلم يقدّم لي شاياً أو مرطبات، ولم يبذل أي جهد لإثارة إعجابي، ولم يصدر عنه إلا القليل مما ينم عن الذكاء، وحين هممت بالخروج من المكتب كان بريمر قد عاد سلفاً للجلوس إلى مكتبه.

إن المشكلات النفسية والفكرية أسلحة ذات حدين، فقد كان جميع الأشخاص الذين يحظون بثقة بريمر تقريباً من الأميركيين، أما السفراء الذين يتحدثون العربية، ممن يتمتعون بخبرة طويلة في الشرق الأوسط، فقد كانوا أقل قدرة على الوصول إلى المدير، وكان عملهم أقل من عمل الفئة الصغيرة من مساعديه الذين يثق بهم من واشنطن. أخبرني شخص عراقي كان مقرباً من سلطة الائتلاف المؤقتة أنه كلما قلّت معرفة المرء بالعراق كان أكثر تأثيراً.

حين كان بريمر يغادر القصر كان يغادر تحت حراسة أمنية مشدّدة. ففي يوم حارق التحقت بفريقه الصحفي، وتبعنا المدير في طائرة مروحية من طراز (شينوك) حيث قام بجولة في الصحراء الجنوبية. توقفنا في مشفى للتوليد في مدينة الديوانية. وقد استقبل بريمر الذي كان يجبر نفسه على احتمال ارتداء البذلة الرسمية وربطة العنق في كل مرة يظهر فيها أمام الناس طوال أشهر الصيف، من قبل كبار أصحاب النفوذ ذوي الشوارب الذين يرتدون العمائم، فقال لهم: «نحن في الائتلاف سعداء؛ لأننا استطعنا أن نقدّم لكم الحرية من دكتاتورية صدام حسين. إنكم تنعمون الآن بهذه الحرية، ولديكم الآن أمل أفضل في المستقبل». ثم مضى يقول: «إن مستشفيات العراق البالغ عددها مئتين وأربعين تعمل جميعاً الآن، كما أن تسعين بالمئة حالياً من العيادات في البلاد تعمل. وتنص ميزانية النصف الثاني من هذا العام على زيادة بواقع ثلاثة آلاف بالمئة من الإنفاق في العراق على العناية الصحية. وقد تم شحن خمس مئة طن من الأدوية في شهر مايو/أيار. وشحنّا في الشهر الماضي ثلاثة آلاف طن، بزيادة في الشحنات قدرها سبع مئة بالمئة في غضون ثلاثة أشهر».

أصغى إليه الوجهاء وصفّقوا له، كما قدّموا لبريمر دعوات طويلة، ثم قام بريمر بزيارة الأجنحة في الطوابق العلوية.

كان بريمر يتنقل مع فوج كبير من المساعدين، والحراس المدنيين بأسلحتهم الآلية من طراز إم ب 5، ونظاراتهم الشمسية، بالإضافة إلى الصحفيين، وقد تجوّلت تلك المجموعة في قاعة الطابق الثاني، وأذهلت الأطباء، ثم قاموا بجولة على الغرف التي كانت الأمهات المستلقيات على الأسرّة فيها مع مواليدهن أكثر ذهولاً. أعطاه مساعدوه لعباً؛ كي يقدمها للمرضى؛ كان في إحدى الغرف طفل خديج نحيل ذابل بين ذراعي والدته. وعلى سرير مجاور كان هناك طفل في الثالثة من عمره، ورأسه متدلٍّ إلى الخلف على جسم والدته، وفمه مفتوح. كان هذا الطفل مريضاً، وربما على حافة الموت، وليس طفلاً حديث الولادة. اختفت البسمة عن وجه بريمر، حين أدرك أين هو، وقال: «لا أطيق رؤية ذلك أبداً»، وطلب إلى المصور أن يتوقف عن التقاط الصور.

تركت المجموعة منزعجاً، ونزلت على الدرج عائداً. دار حديث بيني وبين بعض الأطباء الشباب. وأخبروني أن الكهرباء تعمل الآن فقط بسبب وجودنا هنا، فقد كانت مقطوعة طوال

الأسبوع. وقد أدى انقطاع الكهرباء إلى زيادة عدد وفيات الأطفال هنا إلى الضعف: فدون الحاضنات المناسبة بلغ معدل الوفيات سبعة إلى عشرة أطفال كل يوم، وكان في المستشفى عدد من المولدات المعطلة، وقد ذكر لي بحّار احتياطي أن مبلغ عشرين ألف دولار يمكن أن يكفي لإصلاح المولدات التي يمكنها أن تزود المستشفى بالكهرباء اللازمة للعمل على مدى أربع وعشرين ساعة، وقال الأطباء: إن المولدات يمكن أن تخفض معدل وفيات الأطفال إلى النصف على الأقل.

تحرك كريس هارفن أحد مساعدي بريمر الصحفيين متوجهاً نحونا، وسأل الأطباء الشباب، وهو يحاول توجيه الحديث نحو رسالة معينة: «هل أنتم سعداء برحيل صدام؟» واستطرد قائلاً: «أليست الأمور أفضل الآن؟» فأجاب الدكتور قاسم الجنابي مبتسماً: «نعم».

«ما أفضل شيء حصل برحيل صدام؟».

فأجاب الطبيب محمد جاسم: «لم أفهم سؤالك»، وتعين على هارفن تكرار السؤال ثلاث مرات أجاب د. جاسم: «شيء واحد، في اعتقادي شيء واحد، حرية الكلام فقط... فقط... فقط... لكن لا فعل... لا فعل...».

«هل تعتقد أن الأمور ستصبح أفضل مع مرور الزمن؟».

«نعم نعتقد أنها ستصبح أفضل في المرة القادمة».

«الصبر، أليس كذلك»؟.

قال د. جنابي بصراحة: «نريد الكهرباء بصورة مستمرة، والأمن في مدينتنا لم يستتب بعد. هذا هو الأمر. وكذلك الراتب».

لكنّ الطبيبين في الديوانية لم يردعا هارفن المحارب القديم في حملة بوش الأولية عام 2000، في ساوث كارولينا الذي سعى لتشويه سمعة جون ماكين: «ولكن ألا تظنون أن الوضع سيتحسن مع مرور الزمن؟ ما رأيكم؟» ما الذي يمكننا أن نفعله؟».

قال أحدهما: «الأمن».

«الأميركيون؟ العراقيون؟ أن يعملوا معاً؟».

«نعم».

وهكذا. ... سيؤدي الاقتصاد إلى تهدئة أعمال النهب»؟

لم تكن الأخبار السارّة لسلطة الائتلاف المؤقتة موثقة دائماً؛ فقد قيل للعراقيين مراراً وتكراراً: إن إنتاج الكهرباء سيزداد قريباً، لكنه لم يصل حتى إلى المستويات التي كان عليها قبل الحرب، حتى بعد وصول الأميركيين بسنة، بينما كانت الصعوبات تزداد شدة، ومن الطبيعي أن ذلك زاد شكوك العراقيين بمحتليهم، وقد انخفضت الأرقام الصحية التي أوردها بريمر في المشفى في الديوانية بشكل ما عن طريق محادثة دارت بالمصادفة في اليوم الآتي، بيني وبين الدكتور جان بيرنارد بوفيير، من الجمعية البريطانية الطبية الخيرية (ميرلين)، وقد أخبرني بوفيير أن وزارة الصحة أصبحت قوقعة جوفاء دون أي سيطرة مركزية. لم يكن لدى أحد معلومات عن المخزون في مستودعات الصيدلية المركزية، «قالوا: إنهم جلبوا ست مئة طن من ماذا؟» لقد كدّست كمية ست مئة طن من الأدوية في عيادة واحدة، ولم تترك الصناديق المكدسة مكاناً للمرضى. وقد وضع بوفيير «خطة توزيع وطنية طارئة للأدوية». وبعد شهرين لم يكن هناك استجابة من الائتلاف. وكونه محارباً قديماً خبر كوارث عديدة، وجد أن خبرات المنظمات غير الحكومية، كمنظمته، تضيع باستمرار بسبب سلطة الائتلاف المؤقتة، «هذا غير موجود في تجربتهم، فهم لا يرون هشاشة النظام. ولا يرون ضرورة الوضع، فليس الأمر أن الأطفال يتضورون جوعاً الآن، لكنها بنية تتقوض على نحو بطيء، وهي تتهاوى تماماً دون أن يظهر أثرها بعد». وأضاف: «بوسعك أن تفكك مجتمعاً ببطء شيئاً فشيئاً، لكنك تصل بعد ذلك إلى نقطة تنهار فيها».

لقد أدّى انعزال سلطة الائتلاف المؤقتة خلف حدود الأمن، وصعوبة الاتصالات جعلها مؤسسة مبهمة لدى العراقيين والصحفيين على حد سواء، كما كانت صعوبة الوصول إليها متعمدة بشكل جزئي في اليوم المقبل، بعد أن طلب بريمر من ميغان أو سوليفان ألا تتحدث إلي عن أي شيء (فقد غدت غير مقرّبة منه مؤقتاً بسبب محادثاتها معي)، قال لي: «لقد أعدت لتوي تنظيم مركز الاتصالات الإستراتيجية هنا»، وكان ستراتكوم يقوم بدور امتداد خارجي للمكتب الصحفي للبيت الأبيض، ويقدّم رسائل باستمرار، وكان همه الأكبر التحكم في فهم الجمهور الأميركي للدورة الأخبارية على مدى الأربع والعشرين ساعة، وليس تطوير

مصـدر معلومات من شـأنه أن ينافس في واقـع العراق على المدى البعيـد؛ تلقيت ذات مرة أربعة بيانات صحفية منفصلة تعلن أنه: «سيتم الإسراع في إصلاح خط مياه بغداد الرئيس الذي تعرّض للتفجير». لكن حين لم يتم ترميمه بالسرعة التي وعد بها؛ لم يكن هناك بدّ من زيادة سخط العراقيين، بينما لم يكن الأميركيون في أمريكا أكثر حكمة.

لقـد أصـبح المنفذ الإخباري لسـلطة الائتلاف المؤقتـة للعراق إخفاقاً مطلقاً؛ فقد رسـا عقد شـبكة الإعـلام العراقية البالغة قيمته 82 مليون دولار على شـركة من سـان دييغو هي شركة (SAIC): مؤسسة التطبيقات العلمية الدولية، التي لم يكن لها خبرة ذات صلة بوسائل الإعـلام، لكـن تربطها صـلات بمكتب وزيـر الدفاع. وكانـت شـركة SAIC تدفع«لخبرائها الإعلاميين» من الأميركيين ما يزيد على مئتي ألف دولار في السـنة، في حين تدقق في حساب الشـركة التـي أنتجـت مزيجاً مـن الإعلانات الرسـمية لسـلطة الائتلاف المؤقتـة والأغاني العربيـة، ذكّر ذلك العراقيين بشـكل كافٍ بالتلفاز في ظل نظـام الحكم القديم، حيث تحول معظمهم عنه من أجل الحصـول على معلوماتهم، إلى محطات الجزيرة والمحطات الإيرانية الأكثر إثارة للفوضـى، وأضاعت سـلطة الائتلاف المؤقتة الفرصة المبكرة التي قد لا تعود من جديد، للبدء بالتعليم المدني الذي يعدّ أساسـاً لتحول العراق إلى الديمقراطية. كان الجميع في بغداد يعرفون أن مشـروع وسائل الإعلام كان كارثة، وفي لندن، كان طوني بلير يعرف، إلا أنّ هذه المشـكلة قد نشأت في واشنطن، شأنها شأن الجوانب الأخرى الكثيرة للاحتلال. وقد عكس التخطيط السخيف رغبة البنتاغون في إعلان الحرية في العراق دون القيام بعمل أكثر صعوبة وأكثر مخاطرة من ذلك، بمساعدة العراقيين في إنشاء المؤسسات اللازمة، مما يعني التخلي عن السيطرة. حتى في الوقت الذي بدأ فيه بريمر وسلطة الائتلاف المؤقتة في انتشال العـراق مادياً من تدهوره الطويل، وانهياره المفاجئ اسـتمرت الإخفاقات الفكرية للتخطيط في مطاردتها الاحتلال.

سـافر مدير الشبكة الإعلامية إلى واشـنطن وحذر بول وولفوفيتز بشأن نزع السلاح من جانب واحد في معركة لكسب القلوب والعقول. فكانت إجابة وولفوفيتز، مهندس إستراتيجية الإدارة للديمقراطية في العراق والشرق الأوسط: إن للبنتاغون الثقة التامة في متعهدها، وإن المسـألة قد أوشكت على الحل. وتم اسـتبدال المدير، ولم يعد إلى بغداد. كانت تلك الأولويات

التي وقع الاختيار عليها، وضاعت الفرص، وكانت القرارات تتخذ ولا تنفذ، بعيداً عن أنظار الناس، في الأشهر الأولى للاحتلال، عندما كان كل شيء لا يزال في مهب الريح، وكما قال إيردمان حين كانت الأمور لا تزال سائلة، ولم تكتسب الصلابة بعد.

تنقّلت بين المنطقتين الحمراء والخضراء، أي بين المنطقة التي تتمركز فيها سلطة الائتلاف المؤقتة، وبين باقي مناطق العراق، وكان هذا التنقل يشعرني بالدوار، فعلى جانبي الأسلاك الشائكة والجدران الإسمنتية كان هناك واقعان منفصلان: كانت سلطة الائتلاف المؤقتة تصر على أنها تحقق تقدماً؛ بينما لم يكن العراقيون يرون ذلك. وقد قال عراقي يعمل مع إيردمان: «اسمع، إذا لم أعمل معكم فلن أرغب في وجودكم هنا أيها الأمريكيون. أنا أرى ما تقومون به، لكن بقية أفراد المجتمع لا يرونه، كل ما يعرفونه هو أنه لا توجد لديهم كهرباء. وأنتم غير مقنعين. إنكم لا توضحون المسألة، وهم لا يشعرون أن هناك خطة».

كان نشاط الأمريكيين المحموم في حرارة بغداد يذكرني بشخص يحاول الخروج من حفرة، بينما تنهار الأرض تحت قدميه، أو يدوّر عجلاته في الرمل، وهي تغوص أكثر. ومع ذلك لم أكن أرى في تلك الأشهر الأولى بديلاً عن سلطة الائتلاف المؤقتة، فقد كانت أفضل من فراغ السلطة الذي كان في شهري أبريل/ نيسان، ومايو/ أيار، وكانت أفضل من أي جهة عراقية يمكن أن تخطر ببالي. كان من الواضح أن السياسيين المغتربين لم يكونوا يتمتعون بالشعبية، بل إن شعبيتهم ربما كانت أقل من شعبية الأمريكيين. أما «سياسيو الداخل» كما يسمونهم، فلم يكن لديهم منظمات فاعلة، كما أن فروع الحكومة المحلية، التي كنت أشاهدها تنمو في أنحاء المدينة، كانت بالكاد على قيد الحياة. لم أكن أستطيع أن أفكر في إمكانية أن تكون حكومة عراقية ضعيفة، وفاسدة ومليئة بالأحقاد، أفضل من حكومة أمريكية منعزلة وغير شرعية.

ذات مساء احتسيت شراباً في فندق مع مسؤول شاب من فريق الأمم المتحدة في بغداد، فوصف لي الشكاوى التي كانت الأمم المتحدة تسمعها من العراقيين: المحتجزبن الذين لا تستطيع عوائلهم أن تسمع شيئاً عنهم، ومقاطعة العراقيين المرتبطين بالنظام القديم، وطريقة اليد الثقيلة التي يعتمدها الجنود الأميركيون، واللغة العربية السيئة التي ينطق بها على شبكة

تلفاز سلطة الائتلاف المؤقتة. كنت أصغي له وصبري ينفد. ترى هل كانت تلك الأمور فعلاً أهم الأمور التي تحدث في عراق ما بعد الحرب؟ وهل كان يفترض بي أن أشعر بالأسف من أجل بعثي فعل ما الله أعلم به، حين كان في السلطة وفقد عمله الآن؟ وماذا عن الجرائم الكبرى التي ارتكبها حزب البعث، والفرصة التي أتيحت الآن للعراقيين كي يتجاوزوها؟

قال مسؤول الأمم المتحدة: «إنهم في ظل الاحتلال، وهم ليسوا سعداء بذلك».

في إحدى زياراتي لمكتب الشيخ عماد الدين العوضي، التقيت أحد زملائه في السجن، ويدعى عبد الزهراء عابد، وهو رجل قوي في منتصف العمر يضع نظارة ثخينة، وأنفه عريض، فأخذني جانباً وأخبرني عن قضية ابن أخيه الذي يعمل في استيراد الموز: كان ابن أخيه قد اعتقل من قبل الجنود الأميركيين في مكتبه مع تسعة عشر رجلاً آخرين بمن فيهم النادل الذي يقدم الشاي، كما أخذ الجنود أيضاً ما يعادل اثني عشر ألف دولار بالدنانير العراقية، وسيارة الشركة من طراز BMW، ولم يستطع أقارب ابن الأخ معرفة أي شيء عن مصيره، فذهبوا في البداية إلى بوابة الحشاشين آملين في الدخول إلى القصر الجمهوري، بيد أن الجنود منعوهم من الدخول وقالوا: إنه ليس هناك معلومات لديهم. واقترح الجنود أن يحاول الأقارب في المطار، حيث يتم احتجاز الأشخاص المهمين في القاعدة الأميركية الواسعة. وفي المطار عاد الأقارب خائبين أيضاً، فقصدوا مركز شرطة مركزياً، حيث سمعوا أنه كانت لديهم هناك قوائم بالأسماء، غير أن اسم ابن الأخ لم يكن بين تلك الأسماء، في اليوم الآتي قاد الأقارب سيارتهم في أعقاب سيارة حراسة إلى القاعدة الأميركية قرب الملعب الأولمبي، فشهر جندي بندقيته في وجههم وأمرهم بالعودة، فشكروا الجندي، وعادوا إلى سيارتهم وغادروا. فعادوا إلى المطار مرة أخرى دون أن يحالفهم الحظ. في ظل العهد السابق كان بمقدورهم معرفة لمن يقدمون الرشوة من أجل الحصول على معلومات، لكن بعد أربعة أيام من البحث في كل أنحاء بغداد لم تعرف العائلة إلى أين تلجأ؟.

روى لي عبد الزهراء عابد، الذي أمضى سنة ونصف السنة في السجن؛ لأنه شتم نظام صدام، هذه القصة، بينما كنا واقفين في غرفة مقابل مكتب الشيخ تعج بملفات من الأرض حتى السقف: ومصفوفة على رفوف معدنية محشوة بملفات السجناء السابقين». أنا لا أدافع عنه. غير أنه ولو كان متورطاً في شيء ما ينبغي عليهم، من وجهة نظر إنسانية، إبلاغ العوائل»

هذا ما قاله عابد، وأردف قائلاً: «إنهم يعتقلون الناس ولا يقدمون معلومات لأسرهم، مثلهم مثل البعث. فلا فرق بين الماضي والحاضر. ويجب أن يكون هناك فرق».

عندئذ لان عابد، وأراد أن يشكر كلاً من: جورج بوش الأب من أجل ممارسة الضغط الذي أدى لإطلاق سراحه من السجن، وبوش الابن للتخلص من صدام». الأميركيون بشر مثلنا، فنحن لسنا أفضل، ولا أسوأ، فهم يخطئون».

بعد يومين سمح لي بحضور اجتماع للقادة، في مقر قيادة الكتيبة الثانية من الفرقة المدرعة الأولى، عرض ضابط الاستخبارات المسؤول عن جهاز العرض باور بوينت (Power point) صوراً مأخوذة بالأقمار الصناعية لمكتب مستورد موز تمت مداهمته. كان المستهدفون يمولون أنشطة المتمردين على حد قوله؛ فضحك الضباط الحاضرون من اعتماد المتمردين على الموز. تم طرح القضية من جديد في اليوم المقبل، في مركز المؤتمرات الذي كان المكان الوحيد الذي يستطيع فيه العراقيون الذين يعبرون نقاط التفتيش، وتدقيق الهويات الثلاثة، عرض مشكلاتهم مباشرةً على سلطة الاحتلال. وفي مركز المساعدة العراقي صادفت رجلاً يدعى رعد صقر عابد. كان هذا الرجل شقيق مستورد الموز، وقد أوصله تجواله الطويل إلى هنا بعد أن أبلغته اللجنة الدولية للصليب الأحمر أنه ليس بوسعها أن تفعل شيئاً حتى يسمح الأميركيون لها بمشاهدة المحتجزين. وذهب من هناك إلى جمعية للسجناء السابقين، كانت منافسةً لمؤسسة الشيخ، وكان أحد أعضائها قد أتى به إلى هنا.

كانت متابعتي لقضية مستورد الموز مصادفة، كما كان من قبيل المصادفة أن أحد المسؤولين في سلطة الائتلاف المؤقتة يدعى ديف هودجكينسون كان في مركز الاجتماعات في الوقت الذي التقيت فيه شقيق المحتجز، وقال هودجكينسون للأخ أن يذهب ويقابل الكولونيل في مقر قيادة الشؤون المدنية - العسكرية قرب القصر الجمهوري. وهكذا أدى البحث عن المحتجز في نهاية الأمر بأقاربه إلى العودة إلى حيث بدؤوا، في بوابة الحشاشين. وبينما كان الحديث يدور بين هودجكينسون والشقيق لاحظت لافتة قرب مكتب الاستعلامات كتب عليها اختصارات باللغة الإنكليزية، وبعدها «كل ما تريد معرفته أبداً». لم يكن أي عراقي يستطيع التفاوض في غابة اختصارات الجيش الأمريكي، والحراس المسلحين، للحصول

على المعلومات التي يحتاجها، كمكان قريب له إلا بمحض المصادفة أو الاستثناء. لم أعرف شيئاً عن مصير مستورد الموز بعد ذلك.

كان هودجكينسون مستشار سلطة الائتلاف المؤقتة «للعدالة الانتقالية». وهذا يعني أنه، شأنه شأن سلطة الاحتلال بصورة عامة، كان أكثر اهتماماً بالجرائم السابقة لحزب البعث من أوضاع المحتجزين العراقيين. وكان شاباً قد عمل سابقاً مدّعياً عاماً عسكرياً، وكان أشقر حسن المظهر، لطيف المعشر كأنه رئيس أخوية. أخبرته عن مجموعة الشيخ وأعرب عن اهتمامه. كان الشيخ أحد العراقيين الذين استطاعوا بسرعة الاستفادة من المحتلين الأميركيين لمصلحتهم. وكان يلحّ لكي أرتب لقاءً له مع شخص من سلطة الائتلاف المؤقتة، ممّن يموّلون مجموعات كمجموعته، وكان يطلب مني النصيحة حول الطريقة التي يستطيع بها معالجة ذلك. ورجاني قائلاً: «انسَ جنسيتك الأميركية مدة ثلاثين دقيقة وقفْ بجانبي معهم».

وفي الطريق من المنطقة الخضراء إلى الكاظمية (وكان مسؤولو سلطة الائتلاف المؤقتة يقومون برحلات كتلك دون حراسة في الأشهر الأولى) قال لي هودجكينسون إن: «الكلمة في الشارع جعلت الشيخ يتحالف مع أصحاب النزعات الشيعية المتطرفة، وربما مع رجل الدين الشاب الراديكالي مقتدي الصدر ابن الشهيد آية الله والإيرانيين الذين يدعمونه. سألته إن كان ذلك سيمنع سلطة الائتلاف المؤقتة من تمويله؟ فقال هودجكينسون: «فقط إذا كان المال سيستخدم في شراء مدافع البازوكا. إذا كان مناوئاً للائتلاف، وإذا كان يريد خروجنا فهذا أفضل».

كان الشيخ ينتظرنا على كرسيه الدوار في غرفة الجلوس. رحّب بي بحرارة، وقال: «لا بدّ أن جورج به شيء من الدم العربي!» كان الشيخ متوتراً لوصول هؤلاء الناس المهمّين من سلطة الائتلاف المؤقتة، ومعهم عشرات آلاف الدولارات التي أتوا لتوزيعها، «جورج يذكرك بالخير يا سيد ديفيد، هل دفعت له؟» وأرانا الخاتم الذي كان يضعه من أجل الاجتماع. «أنا أضع هذا الخاتم؛ ليعطيني الشجاعة، كما هو الحال عندما يتعين علي أن أتحدث مع زوجي». وكما كان فعل معي في لقائنا الأول، بدأ يعيد لزواره الجدد قصة السنوات التي قضاها في

السـجن: تحدث عن الازدحام المقيت، والعذاب الجسـدي والنفسي، وعن الرجل الذي قطّع حـذاءه وأكله في شـطيرة. وعند نقطة معينة غـدا منهكاً جدًّا، بحيث تعـين عليه أن يعتذر، وعندما فتح الباب المؤدي إلى مكتبه الداخلي لاحظت أن صورة الخميني قد اختفت.

عاد بعد خمس دقائق، وقال: «أعتذر؛ لأنني أزعجتكم بهذا الحديث».

أجابه هودجكينسون: «يهمّنا أن نسمعك».

- «دعونا نتحدث عن جمعية السجناء».

- «رائع».

فسأل الشيخ: «هل تريدونني أن أواصل الحديث أم أتحدث عن الجمعية؟» وقضى نصف ساعة أخرى في الحديث عن قصته الشخصية.

سـبّب موضوع الملفات بعض الصعوبة. أراد هودجكينسـون من الشيخ أن يقرّ بأنها ملك للشعب العراقي.

قال الشـيخ: «نطلب من الإنسـانية أن تعمل معاً؛ للحفاظ على هذه الوثائق، إنها ليست ملـكاً لأحد، ولا حتى للعراقيين، بل للإنسـانية جمعاء، قد يكون بوش صـداماً ثانياً، وربما يكون أفضل».

- «ستستخدم هيئة الحكم العراقية، بمساعدة الائتلاف، هذه الوثائق لمحاكمة المجرمين علـى جرائمهم، ولكي تروي القصـة للعالم بأسـره كي يعرف»، قال هودجكينسـون: «هناك مشروعات قائمة حالياً لجعل الدليل مركزياً».

- «لكن ذلك قد يسـتغرق سـنوات كثيرة، وسيتم إحراق الكثير من الملفات، وقطع الكثير من الرؤوس؛ لذا فإنني أريد بناء مسـتودع لنحفظها فيه، سـيكون ذلك أكثر أماناً، وستكون برعاية قبيلتي». وأضاف أن هناك نقصاً في المعدات المكتبية.

انتهى اللقاء دون أي وعد محدد بالمال، لكن كان هناك شعور متبادل بحسن النية. وقال هودجكينسون: «أنا سعيد؛ لخروجي من سلطة الائتلاف المؤقتة».

فقال الشيخ: «إنها سجن كبير».

- «لقد كنت في السجن، وها أنت اليوم حرّ. لقد تركنا سجننا؛ كي نأتي نشارككم الحرية».

من بين الأجانب الذين كان الشيخ يحاول الاستعانة بهم، كانت موظفة في الأمم المتحدة تعمل في مجال حقوق الإنسان تدعى إيلاهي شرسف بور هيكس. وقد سلّمها الشيخ قائمة تمنيات دون ميزانية. وتضمنت القائمة ثمانية أجهزة حاسوب وأربع مركبات وحارساً، ومولد كهرباء، ومكيف هواء ومبنى جديداً. وجدت شريف بور هيكس الشيخ ساحراً وخطيراً. كانت قد نشأت في إيران بصفة عضو في الجيل الثوري؛ وكان لها دور في الإطاحة بالشاه، ثم رأت أن رجال الدين لا يفون بوعودهم في تحقيق الحرية والديمقراطية. وكانت متأكدة أن الشيء ذاته يحدث في العراق.

«إن آية الله هذا يسرق المجتمع الدولي باستخدام المساجين»، قالت شرسف بور هيكس: «ينبغي ألا ننتقص من قدر هؤلاء المشايخ، وأخشى أن هذا ما يفعله الأميركيون. بينما كنا نتحدث في أثناء تناول الغداء في كافتيريا الأمم المتحدة، أصبحت منزعجة». «هناك كثيرون مثله. حلمهم وأنموذجهم وفكرتهم هي الوصول إلى السلطة بالطريق نفسها التي وصلوا بها إلى السلطة في إيران. أستطيع أن أرى بأم عيني الأمور نفسها التي حدثت في الثورة». لقد تبين لها أن الأميركيين مترددون في التدخل في الجنون الحاصل، وأن الفئات الدينية تزداد قوة، في حين أن المجموعات العلمانية كانت خائفة أن تثير ضجة«إن الأميركيين خجلون خائفون أن يظهروا بمظهر المحتلين. إنهم يقولون: «نحن نريد أن يتسلم العراقيون دفة القيادة». لكن أي نوع من العراقيين يجب أن يتسلم دفة القيادة؟ إنه وضع مؤلم يجعلني أذرف الدموع في نهاية اليوم».

في المرة الأخيرة التي ذهبت فيها لرؤية الشيخ في ذلك الصيف، سألته عن نوع الحكومة التي يريدها؛ للعراق، فتجاهل السؤال، وكان هناك ثلاثة طلبات لتركيب هواتف خلوية أرادني أن أملأها ليقدّمها لسلطة الائتلاف: واحد له وآخر لزوجه والثالث لابنه الذي يبلغ السادسة من عمره، وللمرة الأولى في أثناء وجودي خلع عمامته، وغدا فجأة رجلاً أصلع متعرقاً ملحّاً، كان الافتتان المتبادل فيما بيننا يقترب من نهايته.

انتهيت من ملء الطلبات، وقلت له: «سمع ديف هودجكينسون أنك قد تكون من أتباع مقتدى الصدر».

«مقتدى الصدر! إنه رجل صغير وليس لديه جزء من المستوى الديني الذي لدي». كان من الواضح أن الشيخ غاضب. «الذين قالوا ذلك للسيد دا في هم أعدائي».

أخبرته أنه لا يبدو أن هودجكينسون وسلطة الائتلاف المؤقتة مهتمون بسياسته.

«ذلك أمر جيد، لكن يجب أن نصلح هذه الفكرة التي أخذوها عني». كنت أعلم أنه قلق بشأن التمويل. «إذا ثبت أنني أتبع خطاً ما، أو أنني عضو في أي حزب سياسي فسأتوقف عن العمل وألزم بيتي».

سألته عن رأيه في نظام إيران؟

فسألني: «هل تعمل لصالح وكالة استخبارات؟» وحدّق في دون أن تبدو عليه أي إشارة لابتسامة الاحترام: «لدي عقل وقلب، فقلبي هادئ معك، وعقلي يقول لقلبي أن يكون حذراً».

- ما كان الدور الصحيح الذي أداه الإسلام في الديمقراطية؟

- «بعد أن أجيب عن السؤال هل ستتركني وشأني بحق السماء؟» حان وقت الصلاة، فأمسكني الشيخ بخشونة من ذقني. «سأجعلك تهدأ بهذه الإجابة. وسأبرد قلبك. ثق بي. وسأخبرك بكل أمانة: إنني أؤمن بسقراط ودائرته، هناك خط في الوسط» رسم خطاً خيالياً يقطع باخرة خشبية كانت على مكتبه: «أحد الجانبين حار والآخر بارد، هذا هو الوسط، وكما كان الفيلسوف يؤمن فإن الأفضل هو الوسط: هل هذا يكفيك أم لديك أسئلة أخرى؟».

بعد عدة أيام تلقيت رسالة إلكترونية من إيلاهي شرسف بور هيكس؛ كانت قد ذهبت لمقابلة الشيخ في ذلك اليوم، وكانت سلطة الائتلاف المؤقتة قد أعطته ثلاثة وأربعين ألف دولار، وكتبت لي: «إنه بحال جيدة، فقد أصبح لديه الآن حاسوبان ومولد كهربائي على الأقل».

غادر درو إيردمان بغداد في أواخر تموز؛ لحضور اجتماع في واشنطن ولرؤية زوجه في سانت لويس، قضيا صباح سبت جميلاً، يمشيان في الخضرة الرائعة لإحدى الأسواق

العضوية، لكنه شعر أنه بعيد، وكأنه ينظر إلى العالم عبر عدسة زجاجية ثخينة. كان يستيقظ كل يوم قبل الفجر، تماماً كما كان يفعل في بغداد، وهو يشعر بثقل ما تبقى عليه من عمل. كان شبه مستحيل أن يخبر زوجه عما كان يفعله. وحين كانا يخرجان مع أصدقائهما، لم يكن يطيق الجلوس بهدوء للمشاركة في الحديث، كان يشعر بالدوار، وكانت يداه ترتجفان بسبب التوتر، وكان يريد العودة.

في واشنطن عرض على إيردمان منصب في مجلس الأمن القومي بصفته مديرًا لشؤون إيران والتخطيط الإستراتيجي. ولم تستغرق محادثاته مع كوندوليزا رايس في البيت الأبيض إلا بضع دقائق. قال لها: «إنهم لا يحبوننا كثيراً، لكننا أفضل الخيارات المتاحة لهم». نظرت إليه رايس باستغراب، لكن المحادثة استمرت. وحين عاد إلى بغداد أخبرني أنه لم يكن يريد مغادرة العراق، فلم يسبق له أن قام بعمل كهذا، كان يهوى العمل في جو من الضغط والحيرة، وكان التعليم العالي قطاعاً يظهر علائم النجاح، لكنه قبل العمل في واشنطن؛ لأنه كان يعني أن يكون أقرب لزوجه.

في يوم من أيامه الأخيرة مع سلطة الائتلاف المؤقتة، رافقت إيردمان إلى الحرم الجامعي في جامعة بغداد، وحتى ذلك الصباح لم أكن أفهم أبداً توتره المستمر وقلقه وشراسته تجاه بقايا النظام القديم، والشعور الذي كان ينقله بأنه لا زال في معركة. انتقل فريقه في سيارتين مدنيتين، وظلوا على اتصال عبر اللاسلكي؛ وفي المقعد الذي بجانبي، أدخل إيردمان مذخراً في مسدسه من عيار 9 مم. كان الحرم الجامعي خالياً إلى حد كبير -وعلى الرغم من الحرب وأعمال النهب، أنهت الجامعات عامها الدراسي في شهر يوليو/ تموز- لكن كانت هناك مجموعة من ثلاثين رجلاً يقفون في ظل شجرة في الساحة بالقرب من موقف السيارات؛ لقد كانوا أساتذة من البعثيين الذين تم اجتثاثهم، وبينما كان إيردمان يمرّ بهم ومسدسه مخبأ تحت قميصه اعترض طريقه ثلاثة منهم:

سأله أحد الأساتذة: «هل أنت د. آندرو إيردمان؟، لدينا بعض الاستمارات». كان الرجال في منتصف العمر، وكان لباسهم أنيقاً وبدا عليهم الاكتئاب، وعرضوا صوراً عن اتفاقية التخلي عن عضوية الحزب، مذيلة بتواقيعهم.

قال لهم إيردمان: «الاستثناءات تمنح من قبل السفير بريمر فقط».

- «نحن نريد مساعدتك في هذا الوضع».

- «أتفهَّم العرقلة التي أصابت حياتكم. لكنني آمل أن تفهموا إعلان الائتلاف في السادس عشر من مايو/ أيار».

- «لكننا لم نفعل إطلاقاً أي شيء من شأنه أن...».

قال إيردمان: إنه لا يستطيع أن يعد بشيء «بعض زملائكم لا يستحقون الإعفاء، بعضهم يجب أن يعود، لكن الآخرين لا».

«أنا أدرك ذلك» قال الأستاذ: «لكن دخلنا الآن معدوم، في هذا الوقت وهذا العمر لا يمكننا أن نعمل شيئاً، وليس هناك عمل يمكننا القيام به».

كان الرجال الواقفون في ظل الشجرة ينظرون إلينا، وقال أحد زملاء إيردمان العراقيين في سلطة الائتلاف المؤقتة: «فلنتابع سيرنا».

كان هناك عراقي آخر يقترب، فقال إيردمان: «دعونا نغادر هذا المكان، فأنا أشعر أنني لم أعد أستطيع أن أساير»، ثم تابعنا السير نحو عمود أبيض في طرف الساحة، وكان خلفه المطعم الزجاجي، كانت هناك لافتة مناوئة للبعث معلقة على الحائط كتب عليها: «لا مكان هنا لأولئك الذين تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء».

قال إيردمان: «هنا وقعت الحادثة، في هذه الزاوية، كان الرجل ملقىً هناك، وهنا سحبت السيارة».

في ظهيرة السادس من يوليو/ تموز، بينما كان إيردمان في اجتماع مع مندوبي منظمة اليونيسكو في مبنى عبر الساحة مشى أحد مرافقيه، جيفري ويرشو، وحيداً إلى المطعم دون أن يرتدي خوذته، وأحضر عبوة من الجعة. كان ويرشو في الثانية والعشرين من عمره، وهو متخصص في الحرس الوطني في فلوريدا، وهو الابن الوحيد لمحامٍ وله اهتمام بالسياسة. كان الجندي يمسك بعبوة الجعة قرب العمود الأبيض، حين اقترب منه رجل وصوّب رصاص مسدسه إلى رأسه مباشرة. واختفى الشخص الذي أطلق النار، الذي يُعتقد أنه كان طالب

هندسة يمنياً، في ازدحام الطلاب المحتشدين، وفي الوقت الذي أسرع فيه إيردمان إلى الساحة وهو يصرخ شاهراً سلاحه، كان الجنود قد فرّقوا الطلاب، ولفّوا الجرح في رأس الجندي، ووضعوا المصاب في مؤخرة سيارة إيردمان، وهي من طراز شيفي سوبربان، وقادها منطلقاً خارج الحرم الجامعي إلى منطقة هبوط طائرات. كان وضع الجندي مستقراً عندما وصلت الطائرة المروحية، لكنه فارق الحياة قبل وصوله إلى المشفى العسكري.

في مساء ذلك اليوم، حاول إيردمان تنظيف السيارة من بقع الدم بوساطة مادة منظفة، قرّر العودة إلى الحرم الجامعي في اليوم المقبل، وقال: «لا يمكنني أن أدع صورتنا تشوه في المدينة، وينتشر عني أنني رميت شخصاً في سيارتي وهربت». تعين عليه أن يطلب مرافقاً من وحدة الرجل الذي لاقى حتفه: «أنا الرجل المدني، وقد قتل أحدهم بسببي، أنا أشعر بهذا لكن لا أعتقد أنهم بالضرورة يشعرون بذلك أيضاً -لن أحمّلهم ذلك- لكن هذا ما حصل». ابتسم إيردمان بطريقته غير المرحة. «لقد قُتل رجل، ولهذا يمكنني أن أذهب، وأتحدث إلى بعض الناس المعنيين من اليونيسكو».

كان السبب الرئيس لزيارته للحرم الجامعي صباح ذلك اليوم، في منتصف شهر أغسطس/آب، هو وداع الدكتور سامي مظفر، الكيميائي الحيوي الذي تم انتخابه رئيساً للجامعة في شهر مايو/ أيار. كان مظفر، وهو في الستينيات من عمره، يرتدي بذلة زرقاء، وكان يشبه هنري كيسينجر بشعره ونظارته الثخينة، جلس هو وإيردمان، الذي يصغره ثلاثين سنة، والذي كان يرتدي بنطالاً خاكي اللون وقميصاً أزرق، في مكتب رئيس الجامعة، واستعرضا أعمال الأسبوع. أخبره إيردمان بأن وزارة الخارجية الأميركية ستستأنف تقديم منحة فولبرايت الدراسية للعراقيين، واشتكى مظفر من اعتقال الأساتذة المشتبه بأنهم قد عملوا في الأسلحة البيولوجية، وهم في الحرم الجامعي. كما وعد إيردمان أن يقدّم لسلطة الائتلاف طلباً لنظام تكييف هوائي في قسم العلوم السياسية.

قال إيردمان «وددت أن أبلغكم أنني عائد إلى الولايات المتحدة».

بدا الذهول على وجه مظفر، وسأله: «للزيارة؟».

فأجاب إيردمان: «بل بصورة دائمة». وقال: إنه سيغادر في الوقت الذي بدأ العمل الشاق لإعادة بناء الجامعات يؤتي أكله، وحين أصبح من الممكن التركيز على إصلاح المناهج، الذي كان محط اهتمامه: «لا أريد أن أغادر».

قال مظفر: «يؤسفني سماع هذا الخبر، لقد اعتدنا وجودك وسنفتقدك فعلاً؛ لأنك رجل طيب وأتمنى لك مستقبلاً زاهراً، لقد فعلت كل ما في وسعك. مررنا بأيام عصيبة وخطيرة جدًّا. لقد تجادلنا وأصبح بيننا خبز وملح، وتلك هي الحياة».

كان كل واحد منهما قد انتقد الآخر أمامي. فقد اشتكى إيردمان من أن مظفراً كان يطالب بالاستقلال عن سلطة الائتلاف المؤقتة، لكنه كان يفتقد للشجاعة لطرد المديرين السيئين من تلقاء نفسه، وقال مظفر مرة: إن إيردمان لم يكن يعرف دائماً كيف يتعامل مع العراقيين، وتذكر أنه في أثناء انتخابات 17 مايو/أيار، عندما خرجت الضوضاء عن السيطرة، صرخ إيردمان الشاب الأميركي بأعلى صوته على المسرح مخاطباً أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة قائلاً: «اخرسوا».

في هذا اليوم، بدا عليهما التأثر والحنين، حيث ارتبطا بتجربة مشتركة. وذكّر مظفر إيردمان بمحنة إنهاء العام الدراسي في الوقت المقرر. «كان كثيرون يأملون ألا ننجح. لا سيما أولئك الذين ينتمون للنظام البائد، وكذلك بعض الدول المحيطة بالعراق. كانوا يأملون في ألا يستكمل العام الدراسي».

فردّ إيردمان قائلاً: «آمل أن يتمكن كلانا من النظر إلى الوراء في غضون بضع سنوات والقول: إننا قمنا بعمل جيد».

«لا تنسنا هناك في منصبك الجديد».

التقيت إيردمان مرة أخرى في واشنطن في سبتمبر/أيلول، وكان مرتدياً بذلة عمل زرقاء، وكان يضع بطاقة دخول البيت الأبيض معلقة حول عنقه. لم يكن العراق المكان المناسب له للعمل، لكنه سرعان ما أعيد للعمل بشأنه مرة أخرى بشكل متفرغ تقريباً. تبين لإيردمان أنه ما من أحد داخل الحكومة أو خارجها يفهم بالفعل الوضع في العراق؛ لقد كانت الهوة

سحيقة بين القيادة وأرض الواقع: «يبدو لي كأنها معركة (خي سانه) اللعنة! وتشارلي داخل القضبان» قال وهو يضحك بتجهم، ويقلّد رعاش دينيس هوبر: «أنت لا تفهم الأمر يا رجل!» وقال: إنه لايزال غير قادر على التفكير بوصفه مؤرخاً. وقال مازحاً: إنه يأمل ألا يكتب يوماً ما كتاباً حول العراق يسميه «الهزيمة الغريبة»، لكن الادّعاء بالتأكد من وجود طريقة إخراج العراق من المحنة: «إنني شديد الحذر من التعامل مع أي شخص يتحدث عن العراق، ويقول: إنه متأكد تماماً بشكل أو بآخر».

بحلول أواخر شهر أغسطس/ آب كان بول بريمر مستعداً لطرح رؤية طموحة لسلطة الائتلاف المؤقتة في العراق، لكنها تتطلب إنفاق عشرات مليارات الدولارات، ولم تكن لدى الرأي العام الأميركي والكونغرس أي فكرة أنه سيطلب إليهم دفعها. وقد يعني ذلك عملية سياسية ذات سبع خطوات كتابة الدستور، وتنظيم عدة مراحل من الانتخابات الوطنية قبل إعادة السيادة للعراقيين قد تستغرق سنة أخرى أو أكثر، وأخيراً أصبح لدى أميركة خطة بشأن العراق.

أُسست هيئة جديدة أطلق عليها اسم مجلس الحكم، في شهر يوليو/ تموز مؤلفة من خمسة وعشرين عراقياً ويسيطر عليه المغتربون السابقون، إلا أن صلاحياته لم تكن واضحة، وكانت رؤيته ضعيفة، ولم يكن العراقيون العاديّون يشعرون بصلة به. اعتمد بريمر في إنشاء مجلس الحكم مساعدة بعثة الأمم المتحدة في بغداد، التي يرأسها الممثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة؛ كان سيرجيو فييرا دو ميللو، دبلوماسياً برازيلياً يعمل في الأمم المتحدة وكان قد تردّد في ترك عمله الجديد بصفة مندوب سام لحقوق الإنسان في جنيف، ليشغل منصباً مؤقتاً غامضاً من حيث سلطته، وهدفه في العراق. وقد قررت إدارة بوش بعد سقوط بغداد مباشرة أن البلد الذي شن الحرب يجب أن يسيطر على العراق بعد الحرب بمكاسبها، بغض النظر عن الخطاب حول الدور «الحيوي» للأمم المتحدة، ولم تقدم أي حوافز للبلدان التي عارضت الحرب؛ كي تشترك في إعادة الإعمار بقواتها وأموالها، لم يرَ بريمر أي سبب لتدويل العراق مع مرور الزمن، وكلما ذكر أحد الزملاء -عادة البريطانيين- الأمم متحدة في اجتماع، كان بريمر يحوّل عينيه، وكأن الموضوع إضاعة للوقت. يبقى الاحتلال شأناً أميركياً، وتعتمد شرعيته على شرعية أميركة.

قال لي السير جيرني غرينستوك، سفير بريطانية إلى الأمم المتحدة الذي زار بغداد في سبتمبر/ أيلول بوصفه مبعوثاً لطوني بلير: «لم تكن الأمم المتحدة لتصبح قادرة على إبقاء الغطاء على ذلك. أولاً: لأنهم لم يكن لهم شعبية قبل أن يبدؤوا، وثانياً: لأنهم لا ينتجون ذلك النوع من القيادة. وثالثاً: لا يمكنك إدارة هذا النوع من التمرين من قبل لجنة كمجلس الأمن -لقد مضى على وجودي في مجلس الأمن خمس سنوات- وأنا أعلم أين تنتهي قدرة الأمم المتحدة، وكوفي عنان يعرف ذلك، فهو لم يتطلع قط لتولّي مسؤولية هذا المسرح». بين سيطرة الأمم المتحدة والسيطرة الأميركية كان هناك دائماً خيار ثالث: وهو التشكيل المبكر لحكومة عراقية مؤقتة، ليس من قبل البنتاغون والناس المفضلين الذين قام بانتقائهم، بل من قبل مؤتمر وطني تحت إشراف دولي، والدوائر الانتخابية الكثيرة في العراق، بما في ذلك تمثيل للسُّنة. بدا أن بريمر لم يفكر في ذلك قط، فقد يمضي قدماً بتصميم في خطته.

إلا أن فريق الأمم المتحدة الصغير في بغداد أتى بمزايا كانت سلطة الائتلاف المؤقتة تفتقر إليها، ومن بين هذه الميزات: الخبرة في جهود بناء الأمة في تسعينيات القرن الماضي التي عدتها إدارة بوش غير ذات صلة، وعديمة الجدوى للعراق، وكان من بين الميزات أيضاً مجموعة من الموظفين العرب الذين كانوا على معرفة بسياسة المنطقة، كما أن الفريق كان أكثر قدرة من الأميركيين على الوصول إلى مجموعة أكبر من العراقيين والاستماع إليهم. سافر موظفو الأمم المتحدة إلى المحافظات السنية الساخطة التي كان العنف ضد الاحتلال قد بدأ يصبح خطيراً فيها، وسمعوا شكاوى العرب السنة الذين أحسوا بالتهميش بعد حلّ الجيش واجتثاث البعث. والتقى فييرا دو ميللو شخصياً في مدينة النجف المقدسة بآية الله علي السيستاني، أكبر مرجع شيعي في العراق، الذي يتمتع بدعم واسع بين صفوف الأغلبية الدينية في البلاد. رفض السيستاني لقاء مسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة، وقد أوضح منذ البداية أنه يريد أن تجرى انتخابات في العراق في أسرع وقت ممكن، وأصدر فتوى أصر فيها على كتابة الدستور من قبل هيئة منتخبة وليست معينة، تم تعليق لافتات تحمل كلمات فتواه في سائر أنحاء المناطق الشيعية في بغداد. لكن حين حاول الذين كانوا يلتقون السيستاني في منزله المستأجر في أحد أزقّة النجف أن يبلغوا بريمر بأهمية الفتوى، صرفهم. وقد أكد لوفد كان يزوره قائلاً: إن «السيستاني يقول أشياء مختلفة في مجالسه الخاصة». لم يكن

يقبل أن يخبره أحد علماء الدين الشيعة كيف يسيّر شؤون البلاد، وبتشكيل مجلس الحكم، بدا بريمر كأنه يرى أن دور الأمم المتحدة قد انتهى. في الوقت الذي التقيت فيه فييرا دو ميللو في شهر آب لم يكن يعرف سبب بقائه في العراق، وقال: إن مهمته ستنتهي قريباً ويعود إلى جنيف.

لم يفتشني أحد في طريقي إلى فندق القنال الذي كان بناءً من ثلاثة طوابق على امتداد الطريق السريع شرق بغداد، اتخذته الأمم المتحدة مقراً لها: كان هناك نقطة حراسة لكن دون تفتيش. وكان موظفو فييرا ديميللو يشغلون قاعة في الطابق الثالث، لكن قبل أن أذهب إلى جناحه الذي كان في الزاوية، توقفت؛ كي أتحدث إلى مستشاره السياسي، وهو أستاذ جامعي لبناني، ووزير ثقافة سابق يدعى غسان سلامة. كان كل من فييرا دو ميللو وسلامة طالبين في باريس في أثناء أحداث مايو/أيار عام 1968، لكنهما لم يلتقيا إلا قبل أشهر قليلة، عندما طلب الموظف المدني الدولي البرازيلي من السياسي القديم المتمرس من بيروت، أن يساعده فيما بدا له مهمة مستحيلة، قال سلامة: «لم يكن يعرف شيئاً عن العراق وكانت معرفته بي أقل».

كان الأسبوع الأخير من إقامتي الأولى في العراق، وكان سيئاً بشكل خاص: مع استمرار الكهرباء في الانقطاع والعديد من الكمائن والتفجيرات في خط نفط كركوك، ومحطة توريد المياه الرئيسة في بغداد، وأعمال شغب قاتلة في البصرة، وتفجير كبير بسيارة مفخخة في السفارة الأردنية. مع أنني لم أكن أعرف وقتها، قبل يومين من زيارتي لفندق القنال أن الأمم المتحدة كانت قد تلقت تقارير استخباراتية عن هجومٍ وشيك بالقنابل سيقع.

برغم كل ذلك كان غسان سلامة الذي كان يشغل مكتب مفتش الأسلحة السابق هانس بليكس التابع للأمم المتحدة، يفكر بشكل تاريخي، وقال: «شعوري العميق هو أن المشكلة لا تكمن في بغداد، بل في واشنطن، فالأشخاص الذين اتخذوا قرار شن هذه الحرب، وقاموا بها وربحوها ليسوا من نوع الأمريكيين الذين اعتادتهم الدول العربية على مدى السنوات الخمسين الماضية؛ فهم ليسوا طاقم المهندسين، وليسوا الأمريكيين البراغماتيين الذين يحلون المشكلات». كان غسان سلامة الرجل القاسي ذو الحاجبين الأسودين الكثيفين يضع

قلادة ذهبية، واستطرد قائلاً: «إنهم أمريكيون جدد، أمريكيون غير معروفين، أمريكيون ذوو عقيدة ومخطط كبير، ولهم أصدقاء هنا لا يعرفهم الجميع ولهم مصالح - إنهم بشكل ما مبشرون».

أشرت إلى أن هؤلاء الأمريكيين الجدد ليسوا مختلفين عن بعض الأمريكيين القدامى الذين خاضوا الحرب الفكرية الباردة في أوروبة وآسية. أدرك سلامة الشبه.

«حين أستمع إلى وولفوويتز أحس أنه يخطئ بين بغداد وبرلين عام 1945. فهو لا يعرف المكان». واستعرض سلامة القرارات الرئيسة التي اتخذتها سلطة الائتلاف المؤقتة، مفنداً خطط الإصلاح الاقتصادي ونظام الاستثمار الجديد: «هذا البلد لا يحتاج على الإطلاق للخصخصة الكاسحة التي تتطلع إليها تلك الحفنة في واشنطن. فإما أنها عقدية أو أن لهم مصلحة، إنهم يريدون بيع ممتلكات العراقيين قبل أن تكون هناك سلطة عراقية شرعية» فهذه العقيدة حسب قوله هي التي كانت خلف اجتثاث البعث وحل الجيش، الأمر الذي تمخض عنه وقوع مشكلات أمنية، وأعمال تخريب متواصلة، ولو أن الأمريكيين في بغداد استطاعوا تحرير أنفسهم من «هذه العقدة الفكرية - الصناعية» في واشنطن «لكان بمقدورهم أن يقوموا بعمل أفضل» والكلام هنا لسلامة.

كان مكتب الممثل الخاص في نهاية القاعة يطل على طريق موصل وجدار أمني جديد من حجارة إسمنتية جوفاء، على مسافة قريبة جدًّا من فندق القنال. وكان القسم من الجدار الذي يقع تماماً تحت المكتب غير منتهٍ بعد، وكان يرتفع سبعة أقدام فقط من أصل ثلاثة عشر قدماً مخططاً له أن يكون ارتفاعه. خلع فييرا دو ميللو سترته، لكن ما إن جلس إلى طاولة القهوة مقابلي حتى كان بنطاله المكوي بعناية وقميصه الأزرق السماوي، وشعره الرمادي الأملس، فضلاً عن صوته التوكيدي الذي يذكر بممثلي الأفلام، قد جعل منه بكل التفاصيل الدبلوماسي الأنيق ذائع الصيت. كان عمل فييرا دو ميللو لدى الأمم المتحدة قد حمله من كمبودية وأنغولا إلى الإشراف على باكورة إعادة إعمار كوسوفو: وأخيراً ليقوم بدور بول بريمر في تيمور الشرقية.

عند وصوله في أوائل شهر يونيه/ حزيران، حاول فييرا دوميللو أن يساعد الأميركيين في الخروج من الورطة التي وجدوا أنفسهم فيها، وأن يساعد العراقيين في ذات الوقت. بدا بريمر الذي تولى مسؤولية مشروع في خطر، غير راغب في إرخاء قبضته، وكان المقترح الوحيد المعروض بدلاً من السيطرة الأميركية الكاملة هو مجلس استشاري من العراقيين لا يتمتع بصلاحيات رئيسة.

وقال فييرا دوميللو: «كانت رسالتي منذ اليوم الأول إليهم، وإلى جيري بوجه خاص، أن هذا الأمر لن ينجح. فلم أرَ نجاح ذلك في تجاربي في أماكن أخرى»، وأخبر فييرا دو ميللو بريمر أن المجلس يحتاج أن تكون لديه صلاحيات تنفيذية. «عليكم أن توكلوا إليهم مسؤوليات على الرغم من أنكم قد تواجهون التحديات. فالعراقيون مصابون بالصدمة، ويشعرون بالإذلال وهم على حق في ذلك، وكما تعلم فقد تيتّم العراقيون، فهناك فراغ كبير في السلطة عندهم، ربما يكونون سعداء برحيل صدام إلى غير رجعة، والحمد لله، لكنهم ليسوا سعداء بهذا الوضع».

بدأ فييرا دوميللو وسلامة وآخرون يعقدون سلسلة من المحادثات في أرجاء العراق مع عراقيين بارزين، وبدأت صفوف المجموعة الأصلية من المغتربين والأكراد تتوسع تدريجياً لتشمل أشخاصاً عاشوا في ظل نظام صدام، وأضحت المفاوضات مع سلطة الائتلاف المؤقتة أكثر ودّية، ووصلت إلى ذروتها. بينما بدأ العراقيون يؤثرون في اختيار الأسماء. وأمضى فييرا دو ميللو ساعات في إقناع ممثل عن الحزب الشيعي الرئيس بأن الانضمام إلى المجلس لن يكون انتحاراً سياسياً. وعندما اعترض بريمر على تعيين شيوعي قال فييرا دوميللو: إن العراقيين العلمانيين الذين لا يتحدثون باسم المجموعات الطائفية قد يكونون ضروريين. وذكر غسان سلامة العبارة العربية «مجلس الحكم» عوضاً عن اصطلاح «المجلس الاستشاري» الذي لا معنى له، واستخدمته سلطة الائتلاف المؤقتة. وفي أوائل شهر يوليو/ تموز أصبح مجلس الحكم أول سلطة من أهل البلد في العراق منذ سقوط نظام صدام. «ربما لم يكن نصف عدد الأعضاء موجودين لو قام جيري بالأمر على طريقته في النصف الأول من شهر يونيه/حزيران»، قال فييرا دو ميللو، واعترف أن المجلس قام بمهمته «وهو في

شرنقة»، وعلى الرغم من ذلك كان يعتقد أن الأمر سيكلَّل بالنجاح في النهاية، وأردف قائلاً: «ما كنت لأجول في بلدان المنطقة محاولاً الترويج لمجلس الحكم لو لم أكن أؤمن بما أقوله؛ لأن آخر شيء أحتاجه، ويحتاجه التنظيم هو الترويج لمصالح الولايات المتحدة». كان يأمل في جدول زمني سياسي سريع، واستفتاء دستوري وانتخابات وطنية وبعودة السيادة بحلول مطلع الربيع. وهكذا سرعان ما يصبح الاحتلال ضعيفاً.

بصفته ممثلاً للأمين العام في العراق، كان لدى فييرا دو ميللو كل المسوغات لانتقاد إدارة بوش التي قضت شطراً كبيراً من العام المنصرم، وهي تسخر من الأمم المتحدة وترفضها، حيث كانت صورة الإدارة الأمريكية في العراق متدنية جدًّا، لدرجة أن فييرا دو ميللوّ شعر بالسخط والإحراج بسبب «عدم وجود سلطة»، لكنه رفض أن يكون فظاً؛ لأنه كان براغماتياً، ولأنه قام في يوم ما بدور كدور بريمر في مكان آخر. فقد قال: «لا أريد أن أكون غير منصف مع الذين يتصدّون لمهمة شبه مستحيلة؛ لأنني قمت بأشياء مماثلة في السابق»، وتابع قائلاً: «يمكن توجيه الانتقاد بطريقة بنّاءة، لكن مجرّد الانتقاد دون إخبار الناس كيف يقومون بالعمل على نحو أفضل هو تصرّف غير مسؤول؛ لأنك تجلس فوق السياج، ولا شيء أسهل من انتقاد أولئك الذين يواجهون التحدّي».

وقد لمّح فييرا دو ميللو أن لبريمر وجهين: وجه يتّصف بالنزعة الدولية، وربما يكون قد اكتسبه من السنوات التي قضاها في السلك الدبلوماسي، ووجه آخر ذو خط متشدّد يُظهر الإدارة في واشنطن، وقد ازداد التقلب في العلاقة بين هذين الوجهين حين بدأت ما سمّاها «شخصية المحافظين الجدد لجيري» بالظهور، لكن حين سألت فييرا دو ميللو إن كان من شأن المشاركة الأكبر للأمم المتحدة في وقت مبكر في العراق أن يحول دون وقوع بعض أخطاء سلطة الائتلاف المؤقتة، كان متواضعاً:

«نعم، كان بوسعنا أن نساعد، وكنا سنسعد جدًّا بذلك، كما أنني أشير إلى أخطائنا؛ لأنك إذا لم تعترف بسبب اقتراف الأخطاء، وبالسبب الذي يجعلك تقدّم درساً الآن، فلن يسمعك أحد. وربما كان بوسعنا أن نفعل ذلك. ومازلنا نستطيع فعل ذلك. مازال لدينا وقت».

نظر إلى ساعته: كان لديه مؤتمر صحفي في غضون بضع دقائق في الطابق السفلي.

بعد ستة أيام، وفي الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر يوم التاسع عشر من شهر أغسطس/ آب، وهو اليوم الذي غادرت فيه العراق، مرت شاحنة برتقالية بسرعة فائقة على الطريق الموصل للمقر أمام الجدار الأمني الجديد تحت مكتب فييرا دوميللو. كانت القوات الأميركية تسدّ الطريق بشاحنة زنتها خمسة أطنان، لكن الأمم المتحدة لم تكن مرتاحة للوجود العسكري المكثف، فطلبت إزالة الحاجز، ومركز المراقبة الذي على السطح والعربات المدرعة التي أمام المجمّع.

كان سيرجيو فييرا دو ميللو جالساً إلى طاولة القهوة مع عدد من الموظفين والزوّار، عندما انفجرت قنبلة وزنها طن واحد، هرع غسان سلامة، والزجاج في شعره إلى القاعة فوجد مكتب فييرا دو ميللو قد انهار وسقط طابقان. فصرخ بالفرنسية: «سيرجيو، كن شجاعاً. استخدم اللغة الفرنسية بسبب تجربتهما المشتركة في مايو/ أيار 1968. «نحن قادمون لمساعدتك».

ظهر ضوء في الجدار الخارجي المدمّر، ومع أن فييرا دو ميللو لم يُجب فقد رآه سلامة يلوّح بيده اليمنى.

«أجبني يا سيرجيو، هل أنت على قيد الحياة؟».

«نعم، يا غسان»

سقط طابقان على ساقيه، وصل الجنود الأميركيون على الفور، وأخرجوا سلامة من المبنى المزعزع. وساعد من الخارج في جهود إزالة الأنقاض. وبقي يتحدث؛ كي لا يفقد الرجل المصاب وعيه، لكن بعد برهة توقف الصوت عن الإجابة. في الساعة الثامنة والربع من مساء ذلك اليوم نجح الجنود أخيراً في إزالة الأنقاض، وتعرف سلامة على جثمان صديقه.

لقي واحد وعشرون شخصاً حتفهم مع فييرا دو ميللو، بمن فيهم مساعدوه المقربون وعمال الإغاثة الأجانب وموظفون عراقيون يعملون لدى الأمم المتحدة، كانت إلاهي شرسف

بور هيكس مسؤولة حقوق الإنسان المولودة في إيران قد غادرت مكتبها الذي يقع تحت مكتب فييرا دو ميللو مباشرة قبل بضع دقائق من وقوع الانفجار؛ لإحضار القهوة، وهكذا نجت بحياتها. تبنّت القاعدة المسؤولية عن الحادث، لكن كان شك بأن بعض حراس المبنى الذين كانوا يعملون في عهد النظام البائد، قد يكونون متورطين، بعد عشرة أيام، وعند انتهاء صلاة الجمعة أودى انفجار سيارة مفخخة أشد قوة بحياة محمد باقر الحكيم الزعيم الروحي لأكبر حزب شيعي، مع نحو مئة شخص آخرين، أمام أقدس مساجد المسلمين الشيعة في النجف. وفي 20 سبتمبر/ أيلول أُطلقت النار على عقيلة الهاشمي في بطنها، بينما كانت تغادر منزلها لتستقل سيارتها، وتذهب لحضور اجتماع مجلس الحكم، وفارقت الحياة بعد خمسة أيام. وفي أثناء شهرين تناقص عدد الأجانب العاملين لدى الأمم المتحدة من 650 إلى نحو 40 ولم يبق منهم أحد في بغداد.

كان بول بريمر من بين الذين ألقوا النظرة الأخيرة على جثمان سيرجيو فييرا دو ميللو في المطار، بينما كان يحمّل على متن طائرة؛ لينقل إلى البرازيل. ثم عاد إلى القصر الجمهوري؛ ليقوم بمهمة حكم العراق وحده.